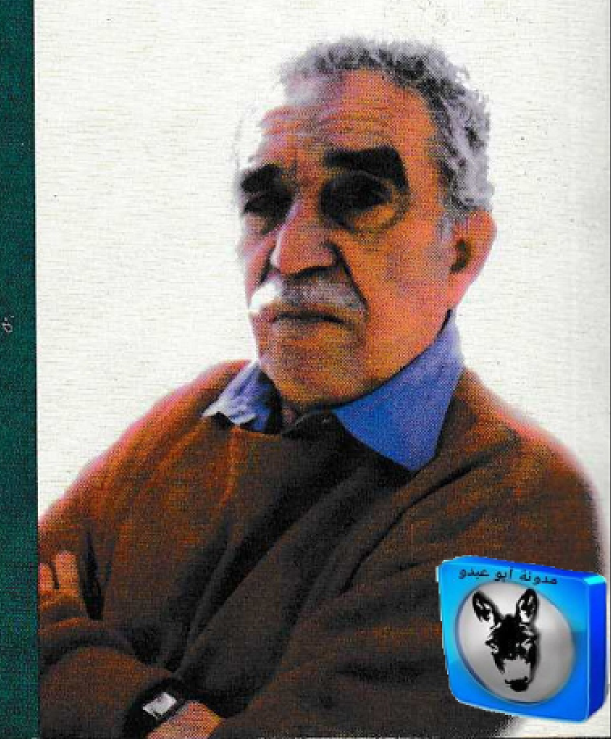
# كوبا في زمن الحصار

غابرييل غارسيا ماركيز




ترجمة
صالح علماني

# كوبا في زمن الحصار

غابرييل غارسيا ماركيز

# كوبا في زمن الحصار

ترجمة: صالح علماني

عنوان الكتاب: كوبا في زمن الحصار
المـــــؤلف: غابرييل غارسيا ماركيز
المتـــــرجم: صالح علماني



الطبعة الأولى ـ 1998

# دار الطليعة الجديدة

سوريا ـ دمشق ـ ص.ب 34494

تلفاكس: 7775872



كوبا في زمن الحصار/ غابرييل غارسيا ماركيز، ترجمة صالح علماني. ـ دمشق: دار الطليعة الجديدة، 1998. ـ 120 ص؛ 24 سم.

1 ـ 972.91 غ ار ك 2 ـ العنوان 3 ـ غارسيا ماركيز 4 ـ علماني

ع: 1154/ 7 /1998 مكتبة الأسد

اخراج: هالـة فطوم صمم الغلاف: جمال سعيد

# رحلتي الأولى إلى هافانا

لم يكن يراودني أي نوع من الفضول للتعرف على كوبا قبل الثورة. فقد كان لدى أبناء جيلي من الأمريكيين اللاتينيين تصور عن هافانا بأنها ماخور فضائحي للغرينغو، وصلت فيه البورنوغرافيا إلى أعلى مستوياتها كاستعراض عام، قبل زمن طويل من تحولها إلى موضة في العالم المسيحي. فبدفع دولار واحد فقط، كان بالإمكان رؤية رجل وامرأة من لحم وعظم، يمارسان الحب فعلاً على سرير في مسرح. لقد كان ذلك الفردوس الاحتفالي الماجن يعبق بموسيقى جهنمية، وبلغة سرية للحياة الحلوة، وبطريقة متميزة في المشي واللبس. ثقافة لهو متكاملة تفرض أثراً مرحاً على الحياة اليومية للوسط الكاريبي بأسره. ومع ذلك، فإن

أكثر العارفين إطلاعاً كانوا يعلمون أن كوبا هي المستعمرة الأوسع ثقافة بين مستعمرات اسبانيا، بل والمستعمرة الوحيدة المثقفة حقاً، وأن تقاليد الصالونات الأدبية والمسابقات الشعرية كانت تتواصل دون انقطاع بينما كان جنود المارينز الغرينغيون يبولون على نصب الأبطال، وبينما أزلام رؤساء الجمهورية من حملة المسدسات، يقتحمون المحاكم وهم يشهرون أسلحتهم ليسرقوا منها الملفات. فإلى جانب مجلة **الأسبوع الساخر**، وهي مجلة توريات كان يقرؤها الرجال المتزوجون في الحمام في غفلة من زوجاتهم، كانت تصدر هناك أكثر مجلات الآداب والفنون تطوراً في أميركا اللاتينية، وإلى جانب المسلسلات الإذاعية الميلودرامية التي تدوم حلقاتها اليومية لسنوات تبدو لانهائية، وتُبقي القارة كلها غارقة في الدموع، كانت إميليا بيلايز تُبدع حريق عباد الشمس الهذياني، وخوسيه ليثاما ليما ينظم سداسياته المحكمة. وكانت تلك التناقضات الفاقعة تساهم في تشويش حقيقة بلد شبه أسطوري، لم تكن حرب استقلاله المنحوسة قد انتهت بعد، وكان عمره السياسي ما يزال ـ في سنة ١٩٥٥ ـ مجرد أحجية لا يمكن التنبؤ بها.

في ذلك العام، سمعت في باريس باسم فيدل كاسترو أول مرة. سمعته من الشاعر نيكولاس غيين الذي كان يعيش منفياً دون رجاء في فندق سان ميشيل الكبير، وهو أقل الفنادق قذارة في شارع يغص بالفنادق الرخيصة، حيث كنا عصبة من الأمريكيين اللاتينيين والجزائريين ننتظر بطاقة عودة ونحن نقتات بجبن زنخ وقرنبيط مسلوق.

كانت غرفة نيكولاس غيين، مثل جميع غرف الحي اللاتيني تقريباً، عبارة عن أربعة جدران من قماش باهت، ومقعدين مغلفين بجلد اصطناعي مهترئ، ومغسلة متنقلة وسريرٍ عازب يتسع لشخصين، وهو سرير أمضى عليه وقتاً سعيداً عاشقان كئيبان من السنغال، وانتحرا عليه. ومع ذلك، وبعد مرور تسع وعشرين سنة، فإنني ما زلت عاجزا عن استذكار صورة الشاعر (غيين) في غرفة الواقع تلك، لكنني أتذكره بالمقابل في أحوال لم أره فيها على الإطلاق؛ كأن أراه جالساً على كرسي هزاز من الخيزران وهو يهوّي بمروحة يدوية، في ساعة القيلولة، على شرفة بيت جماعي ملحق بمعصرة قديمة لقصب السكر، مثل تلك البيوت التي تظهر في لوحات كوبية من القرن التاسع عشر. ولقد حافظ نيكولاس غيين على أي حال وهو في باريس، وحتى في

أقسى أيام الشتاء، على العادة الكوبية المتأصلة في الاستيقاظ (دون ديك) مع أول الديوك، وقراءة الصحف إلى جانب موقد صنع القهوة، بينما أفكاره تهيم في رائحة دبس معاصر قصب السكر وألحان الجيتارات في صباحات مدينة كاماغوي الصاخبة. وقد كان يفتح نافذة شرفته بعد ذلك، مثلما كان يفعل في كاماغوي أيضاً، ويوقظ الشارع عن بكرة أبيه وهو يصرخ بأخبار أميركا اللاتينية الجديدة، بلهجة كوبية عامية مترجمة عن الفرنسية.

كانت حالة القارة في ذلك الحين واضحة تماماً من خلال الصورة التذكارية الرسمية لمؤتمر رؤساء الدول الأمريكية الذي عُقد في العام السابق في بنما: إذ لم يكن يكاد يظهر في تلك الصورة وجه مدني ضامر واحد وسط جلبة البدلات والميداليات العسكرية، حتى أن الجنرال دويت ايزنهاور، وكان من عادته إخفاء رائحة البارود التي في قلبه بارتداء أغلى الملابس من بوند ستريت، ظهر في تلك الصورة التاريخية مرتدياً زي المحارب المستريح. وهكذا فتح نيكولاس غيين نافذته في صباح أحد الأيام وصاح معلناً عن خبر جديد:

ـ لقد سقط الرجل!

هاج الشارع النائم وماج، لأن كل واحد منا ظن أن الرجل الذي سقط هو رجله. فالأرجنتينيون ظنوا أنه خوان دومينغو بيرون، والباراغويون ظنوا أنه ألفريدو سترويسنير، والبيرويون ظنوا أنه مانويل أودريا، والكولومبيون ظنوا أنه غوستافو روخاس بينيلا، والنيكاراغويون ظنوا أنه أناستاسيو سوموزا، والفنزويليون ظنوا أنه ماركوس بيريث خيمينث، والغواتيماليون ظنوا أنه كاستيو أرماس، والدومينيكانيون ظنوا أنه رافائيل ليونيداس تروخيو، والكوبيون ظنوا أنه فولخينسيو باتيستا. وكان الرجل الذي سقط في الواقع هو خوان بيرون.

فيما بعد، وفي أثناء تعليقنا على ذلك الحدث، رسم لنا نيكولاس غيين صورة محزنة للوضع في كوبا، ثم أنهى كلامه بالقول: «الأمل الوحيد الذي ألمحه في المستقبل هو شاب يتحرك بنشاط في المكسيك» ثم صمت مستغرقاً في حالة من التأمل الشرقي، وقال:

ـ **اسمه فيدل كاسترو.**

بعد ثلاث سنوات من ذلك، وخلال وجودي في كاراكاس، شق ذلك الاسم ـ بما يشبه المستحيل ـ طريقه بقوة ليحتل خلال فترة وجيزة المكانة الأولى من الاهتمام

القاريّ. إنما لم يكن هناك من يفكر حتى ذلك الحين بأن الثورة الاشتراكية الأولى في أميركا هي تلك التي تدور رحاها في سييرا مايسترا. لأننا كنا موقنين أن الثورة قد بدأت مسيرتها في فنزويلا، حيث استطاعت انتفاضة شعبية عارمة أن تقوض خلال أربع وعشرين ساعة جهاز قمع الجنرال ماركوس بيريث خيمينث كله.

لو نظرنا إلى ما جرى في فنزويلا من الخارج لبدا لنا أمراً لا يُصدَّق، وذلك لبساطة طروحاته وسرعة نتائجه وفعاليتها الباهرة. فالشعار الوحيد الذي صدر للأهالي هو أن يجري في الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم ٢٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٨، إطلاق نفير جميع السيارات والتوقف عن العمل، والخروج إلى الشوارع لإسقاط الدكتاتورية. لقد بدا ذلك الشعار طفولياً وساذجاً حتى في هيئة تحرير مجلة حسنة الإطلاع، ومعظم أعضائها من الضالعين في المؤامرة. ومع ذلك، وفي الساعة الموعودة، انطلق نداء مدوٍ من أبواق جميع السيارات، وحدثت عرقلة هائلة لحركة المرور في مدينة كانت عرقلة المرور فيها خرافية في الأحوال العادية، ونزلت إلى الشوارع جماعات حاشدة من الطلبة الجامعيين والعمال لمواجهة قوات النظام بالحجارة والزجاجات. ومن التلال

المجاورة، المغطاة بأكواخ ذات ألوان تبدو وكأنها مجسمات لميلاد المسيح كتلك التي تقام في أعياد الميلاد، نزلت جموع غفيرة من الفقراء لتحول المدينة بأسرها إلى ساحة حرب. وعند الغروب، وسط أصوات الرصاص المتفرقة وعواء سيارات الإسعاف، انتشرت الإشاعة التي طمأنت قلق محرري الصحف: فأسرة الدكتاتور بيريس خيمينث قد انتقلت في دبابة لتلتجئ إلى إحدى السفارات الأجنبية. وقبل الفجر بقليل، ساد الأجواء صمت موحش، ثم ما لبث أن انفجر في صراخ مدو، ودوت كذلك أجراس الكنائس وصفارات المعامل وأبواق السيارات، وانطلقت من جميع النوافذ ألحان أغنيات كريولية استمرت، دون انقطاع تقريباً، مدة سنتين من الأوهام الزائفة. لقد فرّ بيريس خيمينث عن عرش النهب مع أعوانه المقربين، وكان يطير ساعتئذ في طائرة عسكرية متوجهة إلى سانتو دومنغو. كانت تلك الطائرة تجثم جاهزة للإقلاع منذ الظهيرة في مطار كارلوتا، على بعد بضعة كيلومترات من قصر ميرافلوريس الرئاسي، ولكن لم يخطر ببال أحد أن يضع لها سلماً حين وصل الدكتاتور الهارب، تطارده عن قرب دورية من سيارات التاكسي كادت تلحق به لولا لحظات قليلة. وقد رُفع بيريس خيمينث، الذي كان

يبدو مثل طفل ضخم يضع نظارة إطارها من قواقع السلاحف، إلى كابينة الطائرة بواسطة حبل. وفي أثناء عملية الصعود الشاقة تلك، نسي على الأرض حقيبته اليدوية. كانت حقيبة عادية مصنوعة من جلد أسود، حمل فيها المبلغ الذي قدّر أنه سيحتاجه كمصروف جيب مستعجل: ثلاثة عشر مليون دولار نقداً من ورق البنكوت.

منذ اليوم الأول، وعلى امتداد العام ١٩٥٨، أصبحت فنزويلا هي أكثر البلدان حرية في العالم كله. بدا ذلك وكأنه ثورة حقيقية: فقد كانت الحكومة تلجأ إلى الشعب فوراً، وعبر أقنية مباشرة، كلما لمحت خطراً يلوح في الأفق. وكان الشعب يخرج إلى الشارع مناهضاً أي محاولة للارتداد. وكانت أشد القرارات الرسمية حساسية في يد الجمهور. ولم يكن يتم الفصل في أي قضية من قضايا الدولة إلا بمشاركة الأحزاب السياسية، والشيوعيون على رأسها. وكانت الأحزاب تعي، خلال الشهور الأولى على الأقل، بأن قوتها ترتكز على ضغوط الشارع. وإذا كانت تلك الثورة لم تتحول إلى الثورة الاشتراكية الأولى في أميركا اللاتينية، فذلك عائد إلى لعبة «الثلاث ورقات» التي مورست، وليس لأن الظروف الاجتماعية لم تكن مواتية بأي حال من الأحوال.

لقد قام في ذلك الحين تواطؤ غير خفي بين حكومة فنزويلا وثورة السييرا مايسترا في كوبا، فكان رجال حركة ٢٦ تموز (يوليو) الكوبية البارزين في كاراكاس يقومون بالدعاية الشعبية عبر جميع وسائل الإعلام، وينظمون حملات واسعة لجمع التبرعات، وينقلون المساعدات إلى رجال حرب العصابات بتواطؤ رسمي من جانب الحكومة الفنزويلية. أما الطلبة الجامعيون الفنزويليون الذين ساهموا في المعركة ضد الدكتاتور، فقد بعثوا بالبريد إلى جامعيي هافانا عدداً من السراويل الداخلية النسائية. وقد تغاضى طلبة كوبا يومئذ عن وقاحة تلك الإشارة الانتصارية، لكنهم بعد مرور أقل من سنة، وعندما انتصرت الثورة في كوبا، أعادوا السراويل إلى مرسليها دون تعليق. وكانت الصحافة الفنزويلية، بسبب أوضاع البلاد الداخلية، وليس بسبب رغبة مالكيها، هي الصحافة الشرعية لثورة السييرا مايسترا. وكان الشعور العام السائد في فنزويلا هو أن كوبا ليست بلداً آخر، وإنما هي جزء من فنزويلا الحرة ما زال يناضل من أجل نيل حريته.

كان عيد رأس السنة عام ١٩٥٩ واحداً من أعياد رأس السنة القليلة التي احتفلت بها فنزويلا دون دكتاتورية

خلال تاريخها كله. كنا ـ أنا وميرثيدس ـ قد تزوجنا في تلك الشهور الحماسية. وكنا عائدين يومئذ إلى بيتنا في حي سان برناردينو مع أول أنوار الفجر. وقد وجدنا المصعد معطلاً، فصعدنا الطوابق السبعة على الأقدام، متوقفين في محطات للراحة في كل طابق. وما كدنا ندخل الشقة حتى هزنا إحساس عبثي بأننا نعيش للمرة الثانية لحظة كنا قد عشناها في العام السابق: فقد انطلق فجأة صراخ مدو في الشوارع النائمة، ودوت نواقيس الكنائس وصفارات المعامل وأبواق السيارات، وانطلق من جميع النوافذ سيل من ألحان الجيتارات مجدولاً بأنغام الخوروبات[1] المجيدة والانتصارات الشعبية. بدا الأمر وكأن الزمن قد رجع القهقرى، وأنه تجري الإطاحة بماركوس بيريث خيمينث للمرة الثانية. ولأننا لم نكن نملك هاتفاً ولا مذياعاً، فقد نزلنا الأدراج متعثرين ونحن نتساءل مذعورين أي خمرة هذيانية قدموا إلينا في الحفلة. لكن شخصاً كان يمر راكضاً في الفجر، صعقنا بالمفاجأة الأخيرة غير المعقولة: لقد فرّ فوليخينسيو باتيستا عن عرش النهب وهرب مع شركائه

[1] نوع من الموسيقى والرقص الشعبي الشائع في كولومبيا وفنزويلا.

المقربين، وهو يطير الآن في طائرة عسكرية إلى سانتو دومينغو.

بعد أسبوعين من ذلك ذهبت إلى هافانا للمرة الأولى، وقد سنحت لي فرصة الزيارة بأسرع مما كنت أتوقع. ففي الثامن عشر من شهر كانون الثاني (يناير) وبينما كنت أرتب مكتبي استعداداً للذهاب إلى البيت، ظهر في مكاتب المجلة المقفرة أحد رجال حركة ٢٦ تموز (يوليو) الكوبية، وكان يلهث باحثاً عن صحفيين راغبين في الذهاب إلى كوبا تلك الليلة بالذات. وقال إن طائرة كوبية قد وصلت لنقل الذاهبين. أول من وقع عليهما الاختيار للسفر أنا وبلينيو ابوليو ميندوثا، وكنا من أشد المؤيدين للثورة الكوبية. مررت بالبيت مروراً خاطفاً لآخذ حقيبة السفر. وكنت معتاداً على الاعتقاد بأن فنزويلا وكوبا هما بلد واحد، إلى حد أني لم أتذكر إحضار جواز سفري. لكنني لم أكن بحاجة إليه على أي حال: فموظف الهجرة الفنزويلي المتحمس لكوبا أكثر من كوبي، طلب مني أي وثيقة لإثبات الشخصية أحملها معي، فلم أجد في جيوبي سوى إيصال من المصبغة حيث أغسل ملابسي. فانفجر الموظف ضاحكاً وهو يمهر قفا الإيصال بالخاتم الرسمي، ويتمنى لي سفراً ميموناً.

لكن العائق الجدّي ظهر فيما بعد، حين اكتشف قائد الطائرة أن عدد الصحفيين المسافرين في الطائرة أكثر من عدد المقاعد، وأن وزن الأجهزة والأمتعة أكبر من الحد المسموح به. ولم يكن هناك بالطبع من هو مستعد للنزول. كما لم يكن هناك من هو مستعد للتضحية بأمتعته. وكان موظف المطار المختص نفسه مستعداً للسماح للطائرة المثقلة بالحمولة أن تُقلع، لكن الطيار كان رجلاً ناضجاً وجدياً، ذا شارب أشهب، يرتدي بدلة زرقاء ذات شرائط مذهبة من تلك التي كانت تستخدمها القوات الجوية الكوبية القديمة، وقد رفض الإقلاع بإصرار. وبقي على رفضه لأكثر من ساعتين، غير عابئ بكل المبررات، إلى أن وجد أحدنا أخيراً حجة أخلاقية حاسمة، وقال له:

ـ لا تكن جباناً إلى هذا الحد يا كابتن. فالزورق غرانما كان مثقلاً بالحمولة كذلك.

نظر الطيار إليه، ثم نظر إلينا جميعاً بغيظ مكتوم وقال:

ـ الفرق الوحيد أنه لا وجود بيننا لمن هو مثل فيدل كاسترو.

لكنه أصيب بجرح قاتل. مدّ يده من فوق طاولة الكونتوار، وانتزع ورقة من دفتر أذونات الإقلاع، وحولها إلى كرة في يده، ثم قال:

ـ لا بأس، سنذهب هكذا. لكنني لن أتخلى عن تحذيري بأن الطائرة محملة بأكثر من طاقتها.

دس كرة الورق في جيبه وأشار لنا أن نتبعه. وبينما نحن نمشي نحو الطائرة، وكنت معلقاً بين خوفي الخِلْقيّ من الطيران ورغبتي في التعرف على كوبا، سألت الطيار وفي صوتي حرقة:

ـ أتظن أننا سنصل يا كابتن؟

فأجابني:

ـ ممكن، بعون عذراء «لاكاريداد دل كوبري».

كانت طائرة عتيقة ذات محركين، وسرت بيننا أسطورة تقول إن طياراً من سلاح الطيران الباتيستي كان قد اختطفها إلى سييرا مايسترا، وإنها بقيت مهجورة هناك في العراء دون حراك حتى ليلة نكبتي تلك، حين بعثوا بها لإحضار صحفيين انتحاريين من فنزويلا. كانت الطائرة من الداخل ضيقة وسيئة التهوية، مقاعدها ممزقة، وتنتشر فيها رائحة بول حادة لا تطاق. قبع كل واحد منا كيفما أتيح له، حتى أن بعضنا جلس في الممر الضيق بين الأمتعة وآلات التصوير السينمائي والتلفزيوني. وكنت أشعر بأنني أكاد أختنق وأنا قابع قبالة نافذة في مؤخرة الطائرة، وكان هدوء زملائي يبث

في نفسي شيئاً من السلوى. وفجأة، همس في أذني أحد أشد الموجودين هدوءاً ورباطة جأش ليقول لي وهو يضغط على أسنانه: «يا لك من محظوظ، فأنت لا تخاف من ركوب الطائرات». حينئذ وصلت إلى ذروة خوفي، فقد أدركت أن الجميع كانوا خائفين مثلي، لكنهم يوارون خوفهم بإظهار وجه هادئة مثل وجهي.

في مركز الخوف من ركوب الطائرة ثمة منطقة خاوية، منطقة أشبه بعين الإعصار، حيث يصل المرء إلى نوع من القدرية الواعية هي الشيء الوحيد الذي يتيح لنا أن نطير دون أن نموت خوفاً. وفي رحلاتي الطائرة الليلية الطويلة والمؤرقة لا أصل إلى تلك الحالة من السكينة إلا عندما أرى من النافذة ظهور النجمة اليتيمة التي ترافق الطائرات عبر المحيطات المقفرة. وعبثاً بحثت عن النجمة في تلك الليلة الكاريبية المنحوسة، وأنا في طائرة المحركات التي بلا روح وهي تجتاز غيوماً وعرة، ورياحاً متقاطعة وبروقاً جهنمية، وتطير متلمسة طريقها بقوة أنفاس قلوبنا المرتعدة وحدها. وعند الفجر، فاجأنا وابل شرس من المطر، فمالت الطائرة على أحد جانبيها مصدرة قرقعة متواصلة مثل قرقعة مركب ينساق على غير هدى مع التيار، ثم حطت مرتعشة ارتعاشة

قشعريرة ومحركاتها مبللة بالدموع، في مطار طـواري‌ء بمدينـة كاماغوي. ولكن ما إن توقف المطر، حتى تفتق الجو عن يوم ربيعي، وصار الهواء كأنه البلور، فطرنا المرحلة الأخيرة مـن الرحلة على ارتفاع نكاد معه أن نلامس حقول قصب السـكر الشذية والمستنقعات البحرية ذات الأسماك المخططة والأزهار التي تبعث على الهذيان في أعماقها. وقبيل انتصاف النهار، حطت الطائرة بين بيـوت أثـرى أثريـاء هافانـا البابليـة، في مطار كـامبو كولومبيـا الـذي عُمّـد فيمـا بعـد باسـم «ثيـوداد ليبرتاد»، وكـان كـاميلو ثينفويغـوس قـد أقـام معسـكره مـع جنوده من الفلاحـين المبهوريـن في ذلـك الحصـن الباتيسـتي القديـم. وقـد كـان انطباعنـا الأول أقـرب إلى الكوميديـا، إذ خرج للقائنا عناصر من سلاح الطيران القديـم، ممـن انضمـوا إلى صفـوف الثـورة في اللحظـة الأخـيرة، وكـانوا مـا يزالـون معتصمين في ثكنـاتهم بانتظـار أن تطـول لحـاهم بمـا يكفـي للظهور وكأنهم من الثوار القدماء.

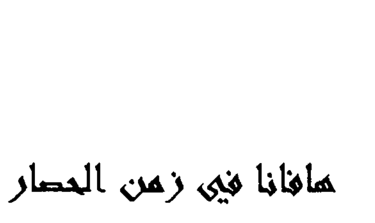
لم يكـن ذلـك الجـو المحمـوم والمضطـرب الـذي نشـأ في هافانا بداية عام ١٩٥٩ جديداً علينا، نحن الذيـن عشـنا في كاراكاس طوال السنة السابقة. ولكن كان هناك اختلاف بين الحالتين: فما حدث في فنزويلا كان عصياناً مدنيـاً، حرّكـه

تحالف أحزاب متناحرة بمساندة قطاع واسع من القوات المسلحة، أدى إلى الإطاحة بحكومة مستبدة. أما في كوبا، فقد جرت انتفاضة فلاحية، أدت بعد حرب طويلة ضارية إلى هزيمة قوات مسلحة مأجورة، كانت تمارس مهام جيش احتلال. لقد كان اختلافاً جوهرياً، ربما ساهم في تحديد أفق المستقبل المختلف لكل من البلدين، لكنه كان بادياً بجلاء من النظرة الأولى، في تلك الظهيرة الرائعة من شهر كانون الثاني (يناير).

كان باتيستا قد جعل من هافانا مدينة غير واقعية، ليبرهن لشركائه الغرينغو أنه يسيطر على زمام السلطة، وأنه واثق بالمستقبل. فكانت دوريات أبناء الفلاحين ممن انتعلوا الأحذية حديثاً، والذين تنبعث منهم رائحة النمور، ويحملون بنادق قديمة ويرتدون ملابس عسكرية فضفاضة على من هم في مثل سنهم، يمشون مبهورين بين ناطحات السحاب التي تبعث على الدوار، وسيارات العجائب، والغرينغات شبه العاريات اللواتي كن يأتين في سفينة نيوأوليانز مفتونات بأسطورة الرجال الملتحين. وعند مدخل فندق هيلتون هافانا، الذي افتتح في تلك الأيام، كان يقف مارد أشقر، يرتدي بزة مزركشة وقبعة مزينة بقنزعة من

الريش مثــل ماريشـال مُخـترَع، وكـان يتكلـم بلكنـة فجـة، لهجة كوبية مختلطة بإنكليزية من ميامي، وينفذ دون تـردد مهام وظيفة البواب الموكلـة إليـه. وقـد أمسـك بصحفـي مـن أعضاء وفدنا، وهو زنجي فنزويلي، ورفعه مـن ياقـة سـترته وألقى به إلى عرض الشارع. فكان لا بد من تدخل الصحفيين الكوبيين لدى إدارة الفندق كي تسمح، ودون تمييز، بدخول جميع المدعوين الذين كانوا يتوافدون من كافة أنحاء العـالم. وفي تلك الليلة الأولى بالذات، دخلت جماعة شبان من أفراد الجيش المتمـرد إلى بـار فنـدق هافانـا ريفـيرا وقـد أنهكهـم الظمأ. كل ما كانوا يريدونه هو كأس ماء، لكن المسؤول عـن البار أعادهم إلى الشارع مستعيناً بكل مـا لديـه مـن أسـاليب اللباقة والتهذب، فقمنا نحن الصحفيين عندئذ بحركة بـدت ديماغوجيـة في ذلـك الحـين، إذ أدخلنـا الشـبان ودعونـاهم للجلوس إلى طاولتنا. وفيما بعد، حين علم الصحفي الكوبـي ماريو كوتشيلان بالحادث، أعرب لنا عن خجلـه وسـخطه، ثم قال:

- هذه الأمور لن تستقيم إلا بثـورة حقيقيـة، وأقسـم لكـم إننا سنصنعها.



# هافانا في زمن الحصار

في تلك الليلة، الأولى من ليالي الحصار، كان هناك في كوبا حوالى ٤٨٢٥٦٠ سيارة، و٣٤٣٣٠٠ ثلاجة، و٥٤٩٧٠٠ مذياع، و٣٠٣٥٠٠ جهاز تلفاز، و٣٥٢٩٠٠ مكواة كهربائية، و٢٨٦٤٠٠ مروحة كهربائية، و٤١٨٠٠ غسالة أتوماتيكية، و٣٥١٠٠٠٠ ساعة يد، و٣٦ قاطرة قطارات، و١٢ سفينة تجارية، وكانت جميع هذه الأشياء من صنع الولايات المتحدة، باستثناء الساعات التي كانت سويسرية المنشأ.

كان لابد ، كما يبدو، من مرور بعض الوقت لكي يدرك معظم الكوبيين ما الذي تعنيه في حياتهم تلك الأرقام القاتلة. فمن ناحية الإنتاج، وجدت كوبا فجأة أنها ليست بلداً

متخلفاً، وإنما مجرد شبه جزيرة تجارية ملحقة بالولايات المتحدة. فإضافة إلى كون صناعة السكر والسيجار تعتمدان اعتماداً كلياً على الشركات اليانكية، فإن كل ما كان يُستهلك في الجزيرة كان من صنع الولايات المتحدة، سواء أكان يُصنع في أراضي الولايات المتحدة نفسها أو في أراضي كوبا. وكانت هافانا ومدينتان أخريان أو ثلاث من مدن المناطق الداخلية تدفع إلى الاعتقاد بأنها تعيش بحبوحة الوفرة. والحقيقة أنه لم يكن هناك شيء غير أجنبي، ابتداء من فرشاة الأسنان وحتى فنادق البلّور ذات العشرين طابقاً القائمة على الكورنيش. كانت كوبا تستورد من الولايات المتحدة نحو ٣٠٠٠٠ مادة نافعة وغير نافعة للحياة اليومية. وحتى أن أفضل زبائن سوق الأوهام ذاك كانوا من السائحين الأميركيين بالذات، ممن كانوا يصلون في الفري بوت من وست بالم بتش، أو في السي ترين من نيو أورليانز، لأنهم كانوا يفضلون أيضاً أن يشتروا ـ دون ضرائب ـ البضائع المستوردة من بلادهم. أما ثمار فاكهة البابايا المحلية، التي اكتشفها كريستوف كولومبس في كوبا منذ رحلته الأولى، فكانت تباع مبردة في المتاجر وقد ألصقت عليها بطاقات مزارعي جزر الباهاما الصفراء. والبيض الاصطناعي الذي

كانت تزدريه ربات البيوت بسبب صفاره الخامد وطعمه الصيدلاني، كانت قشرته موسومة بخاتم مزارعي كارولينا الشمالية، لكن بعض البقالين الفطنين كانوا يغسلونه بمحلول مذيب لحبر الخاتم ويلطخونه بفضلات الدجاج ليبيعوه بسعر أعلى على أنه بيض بلدي.

لم يكن هناك من قطاع استهلاكي لا يعتمد على الولايات المتحدة. وحتى معامل الصناعات الخفيفة القليلة التي أقيمت في كوبا للاستفادة من اليد العاملة الرخيصة، كانت تقوم على آلات مستعملة ومنسقة من العمل في بلد المنشأ. وكان التقنيون المؤهلون تأهيلاً عالياً أمريكيين، أما التقنيون الكوبيون النادرون فقد استجابوا في غالبيتهم للعروض المغرية التي قدمها لهم أرباب عملهم الأجانب، وذهبوا معهم إلى الولايات المتحدة. ولم تكن هناك مستودعات لقطع الغيار أيضاً، فالصناعة الوهمية في كوبا كانت تستند إلى قاعدة تقول إن قطع الغيار متوفرة على بعد ٩٠ ميلاً فقط، وتكفي مكالمة هاتفية لكي تصل قطعة الغيار الأكثر صعوبة في الطائرة التالية دون مشقة أو عوائق جمركية.

وبالرغم من حالة التبعية هذه، فقد واصل سكان المدن الإنفاق بتبذير وإسراف بعد أن أصبح الحصار واقعاً همجياً.

حتى أن الكثيرين من الكوبيين الذين كانوا مستعدين للموت في سبيل الثورة، بل وبعض من ماتوا فعلاً في سبيلها، واصلوا الاستهلاك ببهجة طفولية. ووصل الأمر إلى ما هو أبعد من ذلك، فالإجراءات الأولى التي اتخذتها الثورة، زادت على الفور من القدرة الشرائية للطبقات المتوسطة الفقيرة. ولم تكن لدى هذه الطبقات يومئذ أي تصورات للسعادة سوى متعة الاستهلاك البسيطة. فأحلام كثيرة مؤجلة طوال نصف حياة، أو طوال حياة كاملة، تحققت فجأة. والخلل الوحيد الذي كان يحدث حينئذ هو أن الأشياء التي كانت تنفد من السوق لم تكن تتجدد فوراً، ولن يتجدد بعضها لسنوات طويلة. وهكذا فإن المتاجر التي كانت مترعة بالبضائع المذهلة قبل شهر واحد، أخذت تتحول وبطريقة لا يمكن تجنبها إلى مجرد هياكل عظمية خاوية.

كانت كوبا في سنوات البداية تلك مملكة للارتجال والفوضى. وبسبب غياب أخلاقيات جديدة ـ وهي التي سيتأخر تشكلها في وعي السكان طويلاً ـ وجدت عقدة «التسلط الذكري» الكاريبية مبرراً للبروز في حالة الطوارئ العامة تلك.

كان الشعور الوطني أمراً شديد الغموض والتشوش وسط رياح التجديد والاستقلال الذاتي العارمة، وكانت تهديدات القوى الرجعية في الوقت ذاته حقيقية ومباشرة جداً، حتى أن أناساً كثيرين كانوا يخلطون أحد الأمرين بالآخر، وبدوا وكأنهم يفكرون في أنهم سيجدون حلاً، حتى لمشكلة ندرة الحليب، بإطلاق الرصاص. إن الإحساس المهرجاني العجيب الذي كانت تبعثه كوبا تلك الفترة في نفوس الزائرين الأجانب، كان له أساسه الحقيقي في الواقع وفي روح الكوبيين. ولكن ذلك كله كان مجرد نشوة بريئة لأناس يقفون على حافة الكارثة.

وفعلاً، فقد كنت قد عدت إلى هافانا للمرة الثانية في بداية عام ١٩٦١، كمراسل جوال لوكالة أنباء برنسا لاتينا. وأول ما لفت انتباهي هو أن المشهد الظاهر للبلاد قد تبدل قليلاً، لكن التوتر الاجتماعي بدأ يجعل من التماسك أمراً مستحيلاً. كنت قد طرت من سنتياغو إلى هافانا في مساء يوم رائع من شهر آذار، متأملاً من نافذة الطائرة الحقول الاعجازية في ذلك الوطن الذي بلا أنهار، والقرى المعفرة بالغبار، والخلجان الخفية. وعلى امتداد الرحلة كنت ألمح مسبقاً علائم الحرب: صلبان كبيرة حمراء وسط دوائر بيضاء

رسمت فوق أسطح المشافي لتجنيبها الغارات الجوية المتوقعة. وعلامات أخرى مماثلة على المدارس والمعابد، وعلى ملاجئ العجزة كذلك. وفي مطاري سنتياغو وكاماغوي المدنيين، كانت هناك مدافع مضادة للطيران، من تلك التي استخدمت في الحرب العالمية الثانية، مموهة بقماش خيم الشاحنات، وكانت السواحل مخفورة بزوارق سريعة، وهي زوارق كانت تستخدم للتنزه فيما مضى، وأصبحت مخصصة الآن لمواجهة إنزال بحري محتمل. وفي كل مكان كانت تبدو آثار عمليات تخريب حديثة: حقول قصب متحولة إلى رماد بفعل قنابل حارقة تلقيها طائرات مرسلة من ميامي، وأطلال معامل دمرتها «المقاومة» الداخلية، ومخيمات عسكرية مرتجلة في مناطق وعرة، حيث بدأت تعمل - بأسلحة حديثة وموارد لوجستية متطورة - أول الجماعات المناهضة للثورة. وفي مطار هافانا، حيث لا بد من بذل الجهود لإخفاء جو الحرب المخيم، كان ثمة لافتة ضخمة تمتد من أحد جانبي إفريز البناء الأساسي إلى الجانب الآخر، تقول: «كوبا، الأرض المحررة في أميركا»، وبدلاً من الجنود الملتحين الذين كانوا هناك من قبل، صار يتولى الحراسة فتيان من الميليشيا، بينهم بعض الفتيات، يرتدون الزي الأخضر الزيتوني،

وكانوا ما يزالون مسلحين بأسلحة من ترسانة الدكتاتورية القديمة. لم تكن هناك أسلحة أخرى في ذلك الحين. وأول تسليح حديث تمكنت الثورة من شرائه رغم ضغوط الولايات المتحدة المضادة، وصل من بلجيكا في الرابع من شهر آذار السابق، على متن السفينة الفرنسية «لا كوبر»، وقد جرى نسف تلك السفينة في ميناء هافانا بعملية تفجير تخريبية مدبرة مع حمولتها البالغة ٧٠٠ طن من الأسلحة والذخائر، وأدى الاعتداء يومئذ إلى سقوط ٧٥ قتيلاً و٢٠٠ جريح بين عمال الميناء، لكن أحداً لم يتبناه، ونسبته الحكومة الكوبية إلى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. وأثناء تشييع الضحايا، أطلق فيدل كاسترو الشعار الذي سيصبح الراية العليا في كوبا الجديدة: «الوطن أو الموت». لقد رأيت هذا الشعار مكتوباً أول مرة في شوارع سنتياغو، ورأيته مكتوباً بفرشاة طلاء فوق الإعلانات الدعائية الضخمة الخاصة بشركات الطيران ومعاجين الأسنان الأمريكية على طريق مطار كاماغوي الترابي، ثم عدت لأجده يتكرر على قطع ورق مقوى، بخط مرتجل، في واجهات المتاجر السياحية في مطار هافانا، وفي قاعات الانتظار، ومكتوباً بالاسبيداج الأبيض على مرايا صالونات الحلاقة، وبأحمر الشفاه على

زجاج سيارات الأجرة. لقد وصل ذلك الشعار الغاضب إلى درجة عالية من الإشباع الاجتماعي، بحيث لم يعد هناك مكان أو لحظة لم يكتب فيها، ابتداء من مراجل معاصر قصب السكر، وحتى ذيل الوثائق الرسمية. وقد رددته الصحف والإذاعة والتلفزيون لأيام كاملة، وشهور لانهائية، إلى أن اندمج بجوهر الحياة الكوبية.

وفي هافانا، كانت الحفلة في أوجها. فهناك نساء رائعات يغنين من الشرفات، وطيور براقة في البحر، وموسيقى تصدح في كل مكان. ولكن وسط البهجة، كان يُلمس الصراع الدائر بين طريقة في الحياة مدانة إلى الأبد، تسعى للتغلب على طريقة أخرى ما تزال ساذجة، لكنها ملهمة ومندفعة. وكانت المدينة ما تزال معبداً للمتعة، حيث آلات اليانصيب منتشرة حتى في الصيدليات، لكن مظاهر سلوك الناس كانت آخذة بالتبدل بطريقة فظة. فكل رواسب القاع الاجتماعي طفت على السطح، وراح ثوران بركاني ذو حمم بشرية يتناثر دون رقيب في أرجاء المدينة المحررة، ويلطخ بدوارده الجماعي كل ما فيها ويصل حتى أقصى ثغراتها. وقد لفتت الأنظار تلك التلقائية التي جلس بها الفقراء على مقاعد الأثرياء في الأماكن العامة. لقد غزوا ردهات الفنادق الفاخرة،

وراحوا يتناولون الطعام بأصابعهم في كافتريات الأرصفة في منطقة بيدادو، ويشوون أجسادهم تحت الشمس في المسابح ذات المياه المشعة وفي النوادي القديمة التي كانت حكراً على الفئة الراقية.

أما بواب فندق هافانا هيلتون، الذي صار اسمه هافانا ليبري، فقد استبدل برجال ميليشيا خدومين كانوا يمضون نهارهم في إقناع القرويين بأنه يمكنهم الدخول إلى الفندق دون خوف، موضحين لهم أنه يوجد باب للدخول وآخر للخروج، وأنه لا صحة لأي مخاوف حول الإصابة بالسل، حتى ولو دخلوا وهم يتعرقون إلى البهو المبرد بأجهزة تكييف. وكان هناك ابن بلد أصيل، داكن جداً ونحيل، يرتدي قميصاً مزيناً بفراشات ملونة، وجزمة طويلة ذات كعب مثل كعب حذاء راقص اندلسي، وقد حاول الدخول بالاتجاه المعاكس عبر الباب الزجاجي الدوار في فندق ريفيرا، في الوقت الذي كانت تحاول الخروج فيه زوجة دبلوماسي أوربي ناعمة ومتبرجة، وفي ومضة ذعر مباغته، حاول زوجها الذي كان يتبعها أن يدير الباب في اتجاه، بينما كان رجال الميليشيا المرتبكين يحاولون من الخارج إدارته في الاتجاه المعاكس، فبقي الزنجي والبيضاء

محبوسين لجزء من الثانية في المصيدة الزجاجية، محشورين معاً في الفراغ المخصص لشخص واحد، إلى أن عاد الباب يدور، فركضت المرأة فاقدة صوابها ومتوردة من الخجل، ودخلت إلى سيارة الليموزين التي كانت تنتظرها مفتوحة الباب وانطلقت بها على الفور. أما الزنجي الذي لم يدرك جيداً ما الذي حدث، فقد بقي حائراً ومرتبكاً. ثم تنهد قائلاً:

ـ كونيو . لقد كانت تفوح منها رائحة أزهار! !

كثيراً ما كانت تحدث مثل تلك العثرات التي يمكن فهمها، لأن القوة الشرائية لدى السكان في المدن والأرياف قد تضاعفت أضعافاً خلال سنة واحدة. فتعرفة الكهرباء والهاتف والمواصلات، والخدمات العامة بشكل عام انخفضت إلى مستويات إنسانية، وعرفت أسعار الفنادق والمطاعم، وكذلك وسائط النقل، تخفيضاً كبيراً، وبدأت تنظم رحلات خاصة، ومجانية في معظم الأحيان، من الريف إلى المدينة ومن المدينة إلى الريف. وكانت البطالة من جهة أخرى تقلص بخطوات كبيرة، والأجور ترتفع، وكان الإصلاح المديني قد خفف من غم المستأجرين الشهري، ولم تعد التربية واللوازم المدرسية تكلف شيئاً. أما العشرون فرسخاً من الرمل العاجي عل شواطئ باراديرو، والتي كان

لها مالك واحد من قبل، وكان التمتع بها حكراً على أثرى الأثرياء، فقد فُتحت دون قيد أو شرط لاستقبال الجميع، بما في ذلك الأثرياء أنفسهم. ولأن الكوبيين، مثل جميع شعوب منطقة الكاريبي، يؤمنون منذ الأزل بأنه ليس للنقود أي فائدة أخرى سوى إنفاقها، فقد أتيح لهم أن يثبتوا ذلك عملياً للمرة الأولى في تاريخ بلادهم.

أظن أن عددنا كان قليلاً جداً، نحن الذين انتبهنا إلى الطريقة الصامتة، إنما المؤكدة، التي كانت تتسلل بها الندرة إلى الحياة.

وحتى بعد الإنزال في بلايا خيرون، بقيت الكازينوهات والملاهي مفتوحة، وكانت بنات الهوى اللواتي افتقدن السياح يطفن حول تلك الملاهي وهن يأملن بأن ينقذ ليلتهن عابر سبيل محظوظ كسب في لعبة الروليت. وكان واضحا أنه كلما تبدلت الظروف، أصبحت تلك السنونوات المتوحدات أشد كآبة وأرخص سعراً، لكن ليالي هافانا وغوانتانامو كانت ما تزال طويلة وساهرة، وكانت موسيقى الحفلات المأجورة تمتد حتى الفجر.

حافظت هذه المظاهر المتبقية من الحياة القديمة على وهم الوفرة وطبيعية الأمور، ولم تكن الانفجارات الليلية، ولا

الشائعات المتواصلة عن الاعتداءات الغادرة، ولا اقتراب الحرب الحقيقي قادرة على إخمادها. لكنها لم تعد حقيقية منذ زمن بعيد. فقد كان اللحم ينفد أحياناً من المطاعم بعد منتصف الليل، لكن ذلك لم يكن يهمنا؛ فقد تكون البطاطا الحلوة متوفرة. وكانت موسيقى الأندية الليلية المجاورة والقوادون الهادئون الذين ينتظرون حصاد ليلتهم قبالة كأس من البيرة يبدون غافلين مثلنا عن تآكل الحياة اليومية الذي لا سبيل إلى وقفه.

ظهرت أمام المراكز التجارية أول طوابير انتظار الدور، وبدأت سوق سوداء مستجدة، ولكنها فعالة، بالسيطرة على المواد الصناعية، لكن أحداً لم يفكر جدياً في أن السبب في حدوث ذلك هو تناقص المواد. بل كان التفكير يتجه إلى عكس ذلك تماماً: السبب هو وفرة المال بين أيدي الناس. في تلك الفترة احتاج أحدنا إلى قرص أسبرين بعد الخروج من السينما، فلم نجده في ثلاث صيدليات، ثم وجدناه في الرابعة، وقد أخبرنا الصيدلي بأن هناك ندرة في الأسبرين منذ ثلاثة أشهر.

والحقيقة أن الندرة لم تكن في الأسبرين وحده، وإنما كان هناك نقص في مواد أساسية كثيرة منذ وقت سابق. لكن

أحداً لم يكن يظن بأنها قد تنفد كلها. وبعد سنة من إعلان الولايات المتحدة عن حظر التبادل التجاري الكامل مع كوبا، كانت الحياة ما تزال تسير دون أن يطرأ عليها تبدل يذكر، لكن ذلك لم يكن في الحياة الواقعية بقدر ما كان في روح الناس وقناعتهم.

لقد توصلت شخصياً إلى وعي أبعاد الحصار بصورة فظة، ولكنها لا تخلو من شاعرية في الوقت نفسه، تماماً مثلما توصلت إلى وعي كل شيء في الحياة. فبعد ليلة من العمل في مكتب برنسا لاتينا، ذهبت وحيداً ومنهوكاً للبحث عن شيء آكله. كان الفجر يوشك على البزوغ، وكان البحر هادئاً، تفصله عن السماء فجوة برتقالية عند الأفق. سرت في وسط الشارع المقفر، مستقبلاً ريح الكورنيش الملحية، وباحثاً عن محل مفتوح أتناول فيه الطعام تحت القناطر المتآكلة والمشققة في المدينة القديمة. وأخيراً وجدت مطعماً صغيراً أنزلت ستارته المعدنية، ولكن دون أن تقفل. حاولت رفعها للدخول، لأن ضوءاً كان ينبعث من الداخل، وكان هناك رجل يمسح كؤوساً وراء منضدة الكونتوار. وما كدت أنحني لأرفع الباب حتى سمعت وراء ظهري حركة تجهيز بندقية لا شك فيها، وصوت امرأة ـ عذب ولكنه حاسم ـ يقول:

أحداً لم يكن يظن بأنها قد تنفد كلها. وبعد سنة من إعلان الولايات المتحدة عن حظر التبادل التجاري الكامل مع كوبا، كانت الحياة ما تزال تسير دون أن يطرأ عليها تبدل يذكر، لكن ذلك لم يكن في الحياة الواقعية بقدر ما كان في روح الناس وقناعتهم.

لقد توصلت شخصياً إلى وعي أبعاد الحصار بصورة فظة، ولكنها لا تخلو من شاعرية في الوقت نفسه، تماماً مثلما توصلت إلى وعي كل شيء في الحياة. فبعد ليلة من العمل في مكتب برنسا لاتينا، ذهبت وحيداً ومنهوكاً للبحث عن شيء آكله. كان الفجر يوشك على البزوغ، وكان البحر هادئاً، تفصله عن السماء فجوة برتقالية عند الأفق. سرت في وسط الشارع المقفر، مستقبلاً ريح الكورنيش الملحية، وباحثاً عن محل مفتوح أتناول فيه الطعام تحت القناطر المتآكلة والمشققة في المدينة القديمة. وأخيراً وجدت مطعماً صغيراً أُنزلت ستارته المعدنية، ولكن دون أن تقفل. حاولت رفعها للدخول، لأن ضوءاً كان ينبعث من الداخل، وكان هناك رجل يمسح كؤوساً وراء منضدة الكونتوار. وما كدت أنحني لأرفع الباب حتى سمعت وراء ظهري حركة تجهيز بندقية لا شك فيها، وصوت امرأة ـ عذب ولكنه حاسم ـ يقول:

ـ مكانك يا رفيق. ارفع يديك!

كانت أشبه برؤيا في عتمة الفجر الضبابية، ذات محيا باهر الجمال وشعر معقود فوق الرقبة على شكل ذيل حصان، ترتدي قميص الميليشيا المضمخ برياح البحر. كانت متعبة دون ريب، لكنها باعدت ما بين كعبيها الراسخين في الأرض، وأمسكت البندقية مثل جندي.

قلت لها:

ـ إنني جائع.

ربما نطقت ذلك بإيمان شديد، لأنها أدركت عندئذ فقط بأنني لم أكن أنوي اقتحام المطعم بالقوة، فتحولت ريبتها إلى شفقة، وقالت:

ـ الوقت متأخر جداً.

فرددت عليها:

ـ بالعكس. المشكلة هي أن الوقت مبكر جداً. ما أريده هو تناول الفطور.

أومأت عندئذ بيدها عبر الزجاج، وأقنعت الرجل الذي في الداخل بأن يقدم لي شيئاً، بالرغم من أنه كانت ما تزال هناك ساعتان تفصلانا عن موعد فتح المحل. طلبت بيضاً

مقلياً مع الجامبون. وقهوة بالحليب، وخبزاً وزبداً، وعصيراً طازجاً من أي فاكهة متوفرة.

فقال لي الرجل بدقة مثيرة للريبة إنه لا يوجد بيض ولا جمبون منذ نحو أسبوع، ولا يوجد حليب منذ ثلاثة أيام، وإن الشيء الوحيد الذي يستطيع تقديمه إلي هو فنجان قهوة وخبز بلا زبد، وإذا كنت أرغب في قليل من المعكرونة المتبقية من الليلة الماضية فإنه سيعيد تسخينها. فسألته وقد فوجئت، عما جرى للأشياء التي تؤكل. وكانت مفاجأتي بريئة لدرجة أنه هو الذي فوجئ عندئذ، وقال لي:

- لم يجر أي شيء. لا شيء سوى أن هذه البلاد قد ذهبت مع الشيطان.

لم يكن معادياً للثورة كما تصورت في بادئ الأمر، بل كان عكس ذلك تماماً. فهو الشخص الأخير من أسرة مؤلفة من أحد عشر شخصاً هربوا معاً إلى ميامي، بينما قرر هو البقاء، وقد بقي فعلاً إلى الأبد. لكن مهنته كانت تتيح له رصد المستقبل استنادا إلى معطيات أكثر واقعية مما لدى صحفي متأخر في السهر. فقد كان يرى أنه سيضطر إلى إغلاق المطعم قبل انقضاء ثلاثة شهور بسبب نقص

المأكولات، لكن ذلك لم يكن يقلقه كثيراً، فقد كانت لديه خطط واضحة جداً لمستقبله الشخصي.

كانت نبوءة صائبة. ففي الثاني عشر من آذار ١٩٦٢، وكان قد انقضى ٣٢٢ يوماً على بدء الحصار. فُرض تقنين صارم على المواد الغذائية، فخصص لكل شخص بالغ جراية شهرية مكونة من ثلاث ليبرات من اللحم، وليبرة واحدة من السمك، وليبرة ونصف الليبرة من الفاصولياء، وأربع أونصات من الزبد وخمس بيضات، وهي مخصصات محسوبة لكي يحصل كل كوبي على حصة طبيعية من الوحدات الحرارية (الكالوريات) يومياً. كما كانت هناك مخصصات خاصة بالأطفال، حسب السن، وكان لجميع من هم دون الرابعة عشرة الحق بالحصول على لتر من الحليب يومياً.

فيما بعد بدأت تختفي المسامير، والمنظفات، والمصابيح ومواد أخرى كثيرة من تلك اللازمة للاستخدامات المنزلية الملحة، ولم تكن المشكلة التي تواجهها السلطات هي تنظيم توزيع تلك البضائع، وإنما الحصول عليها. لكن أكثر ما كان يثير الدهشة هو مدى مساهمة تلك الندرة، المفروضة من جانب العدو، في تنقية الأخلاق الاجتماعية. ففي العام الذي

أقر فيه نظام التقنين وقعت الأحداث التي عرفت بأزمة أكتوبر، والتي اعتبرها المؤرخ الإنكليزي هيج توماس أخطر أزمة في تاريخ البشرية. فوقفت الغالبية الساحقة من الشعب الكوبي في حالة استنفار لمدة شهر كامل، بقي الكوبيون خلاله في مواقعهم القتالية حتى بدا أن الخطر قد انجلى، وكانوا مستعدين يومئذ لمواجهة القنبلة الذرية ببنادق الصيد. ووسط تلك التعبئة العسكرية الحاشدة التي كانت كفيلة بضعضعة أي اقتصاد راسخ، بلغ الإنتاج الصناعي أرقاماً غير مألوفة، وانتهى التغيب عن العمل في المصانع، وتم تجاوز عقبات كانت تعتبر قاتلة في ظروف أقل دراماتيكية. وفي واحد من تلك الأيام، قالت عاملة هاتف من نيويورك لزميلة كوبية إنهم خائفون جداً في الولايات المتحدة مما يمكن أن يحدث، فردت عليها الكوبية بالقول:

- نحن هنا في غاية الاطمئنان. فالقنبلة الذرية لا تسبب آلاماً في نهاية المطاف.

كانت البلاد تنتج حينئذ ما يكفي من الأحذية ليشتري كل كوبي زوجاً منها في السنة. وهكذا جرى تنظيم التوزيع في المدارس، وفي مراكز العمل، وفي شهر آب أغلقت جميع المتاجر تقريباً، لأنه لم يعد هناك عملياً ما يمكن بيعه فيها،

فجرى تنظيم بيع الملابس. بدأ الأمر بتقنين تسع مواد من بينها البنطلونات الرجالية، والملابس الداخلية لكلا الجنسين، وبعض المنتجات النسيجية الأخرى، لكنهم اضطروا إلى رفعها إلى خمس عشرة مادة قبل انتهاء ذلك العام.

إن عيد الميلاد في تلك السنة هو الأول من عمر الثورة الذي يجري الاحتفال به دون ذبح الخنازير وصنع حلوى اللوز، والذي تم فيه تقنين بيع دمى الأطفال، ومع ذلك، وبفضل التقنين أيضاً، فقد كان هو عيد الميلاد الأول الذي حصل فيه جميع الأطفال دون تمييز على دمية واحدة على الأقل. ورغم المساعدة السوفييتية المكثفة، ومساعدة الصين الشعبية التي لم تكن أقل سخاء في ذلك الحين، ورغم مساعدة عدد كبير من التقنيين الاشتراكيين والأمريكيين اللاتينيين، فقد كان الحصار حينئذ واقعاً مهيمناً ستنتقل عدواه إلى أكثر الفجوات استتاراً في الحياة اليومية، وسيؤدي إلى التعجيل في التوجهات الجديدة التي لا عودة عنها في تاريخ كوبا. تقلصت الاتصالات مع بقية أنحاء العالم إلى أدنى الحدود، والرحلات الخمس اليومية إلى ميامي والرحلتان الأسبوعيتان إلى نيويورك التي كانت تقوم بها شركة الطيران الكوبية، توقفت جميعها منذ أزمة أكتوبر.

وشركات الطيران الأمريكية اللاتينية القليلة التي كانت تسيّر رحلات إلى كوبا، بدأت تلغي تلك الرحلات حين أخذت حكومات بلدانها تقطع علاقاتها الدبلوماسية والتجارية مع كوبا. ولم يبق سوى رحلة أسبوعية واحدة من مكسيكيو وهي الرحلة التي بقيت لسنوات طويلة تربط كوبا ببقية بلدان أميركا اللاتينية، مثل حبل الخلاص. بالرغم من أنها كانت في الوقت نفسه قناة لتسلل العملاء والجواسيس من الولايات المتحدة. أما شركة الطيران الكوبية، بأسطولها المقتصر على طائرات بريستول بريتانيا الشاعرية، وهي الطائرات الوحيدة التي كانوا قادرين على تأمين الصيانة لها بموجب اتفاق خاص مع صانعيها الإنكليز، فقد أبقت على رحلة شبه أكروباتية عن الطريق القطبي إلى براغ. وكانت أي رسالة من كاراكاس، التي تبعد أقل من ألف كيلومتر عن الشواطئ الكوبية، تلف نصف العالم كي تصل إلى هافانا. وكان الاتصال الهاتفي مع بقية أرجاء العالم يتم عبر ميامي أو نيويورك فقط، تحت رقابة أجهزة الولايات المتحدة السرية، وذلك من خلال كابل بحري خرافي قطعته في إحدى المناسبات سفينة كوبية خرجت من ميناء هافانا وهي تجر مرساتها التي نسيت

رفعها. وكان مصدر الطاقة الوحيد في البلاد هو الخمسة ملايين طن من البترول التي تجلبها الناقلات السوفييتية كل سنة من موانئ بحر البلطيق على بعد ١٤٠٠٠ كيلومتر، بمعدل سفينة كل ثلاث وخمسين ساعة. وقد رست السفينة أكسفورد، وهي تابعة للمخابرات المركزية الأمريكية في المياه الإقليمية الكوبية لعدة سنوات، وهي مزودة بكل أجهزة التجسس، لترصد وتتأكد من أنه ليس هناك أي بلد رأسمالي يقف ضد مشيئة الولايات المتحدة، باستثناء البلدان القليلة التي تجرأت على عدم الانصياع والمشاركة في فرض الحصار. وقد كانت تلك السفينة تمثل استفزازاً سافراً على مرأى العالم بأسره. فمن شاطئ هافانا، ومن أحياء سنتياغو العالية، كان يظهر في الليل شبح سفينة الاستفزاز الراسية ضمن المياه الإقليمية وهي مضاءة. وربما هناك قلة من الكوبيين يتذكرون أنه في الجانب الآخر من البحر الكاريبي، وقبل ثلاثة قرون، عانى أهالي مدينة كارتاخينا دي اندياس مأساة مماثلة.

لقد حاصر تلك المدينة مئة وعشرون سفينة من سفن الأسطول الإنكليزي، بقيادة الأميرال فيرنون، وكان عليها ثلاثون ألف مقاتل من النخبة جرى تجنيد معظمهم من المستعمرات البريطانية في أميركا. تلك المستعمرات التي

ستصبح فيما بعد الولايات المتحدة. وقد كان في قيادة أركان القوات المهاجمة شقيق جورج واشنطن، محرر تلك المستعمرات فيما بعد.

كارتاخينا دي إندياس التي كانت مشهورة في ذلك الزمان بمتانة تحصيناتها العسكرية وبأعداد الجرذان المخيفة في مجاريها، صمدت للحصار بضراوة لا سبيل إلى قهرها، على الرغم من أن الأمر انتهى بأهلها إلى أكل كل ما وجدوه في متناول أيديهم، ابتداء من لحاء الشجر وحتى جلود المقاعد. وبعد عدة شهور من الحصار، انسحب الإنكليز مهزومين أمام بسالة المُحَاصَرين القتالية، وقد فتكت بهم الحمى الصفراء والزحار والحر، أما أهل المدينة فقد كانوا كاملي العدد موفوري الصحة، ولكنهم كانوا قد أكلوا حتى آخر جرذ في المدينة.

هناك كوبيون كثيرون يعرفون هذه المأساة. لكن حسهم التاريخي الفريد يمنعهم من التفكير بإمكانية تكرارها، إذ لم يكن هناك في ليلة رأس السنة لعام ١٩٦٤ من هو قادر على أن يتصور أن أسوأ أزمنة ذلك الحصار الحديدي القاسي لم تصل بعد، وأن الأمر سيصل بعد حين إلى حد نفاد ماء الشرب في بيوت كثيرة وفي جميع المحلات العامة تقريباً.


فيدل، مهنة الكلمة

في إشارة من فيدل كاسترو إلى زائر أجنبي، رافقه في جولة استمرت أسبوعاً في مناطق كوبا الداخلية، قال كاسترو: «كم يتكلم هذا الرجل.. إنه يتكلم أكثر مني». وتكفي معرفة فيدل كاسترو معرفة قليلة للتأكد من أن في كلامه ذاك واحدة من مبالغاته، بل ومن أكبرها. إذ لا يمكن تصور من هو أشد منه ولعاً بعادة التكلم، ويكاد ولعه بالكلمة يكون سحرياً. ففي بداية الثورة، وبعد حوالى أسبوع من دخوله الظافر إلى هافانا، تكلم عبر التلفزيون مدة سبع ساعات دون توقف. ولا بد أن خطابه ذاك كان رقماً قياسياً عالمياً. في الساعات الأولى من ذلك الخطاب، جلس أهالي هافانا، ولم يكونوا قد تآلفوا يومئذ مع سلطة ذلك الصوت

المهيمن، ليستمعوا إليه على الطريقة التقليدية، ولكنهم مع مرور الوقت، أخذوا يعودون إلى أعمالهم المعتادة، مولين إحدى أذنيهم لشؤون عملهم بينما الأذن الأخرى تصغي إلى الخطاب. كنت قد وصلت في اليوم السابق مع جماعة من الصحفيين من كاراكاس، وبدأنا نستمع إليه في غرفنا في الفندق، ثم واصلنا الاستماع إليه، دون انقطاع، في المصعد، وفي سيارة الأجرة التي نقلتنا إلى منطقة المتاجر، وعلى مقاهي الأرصفة، وفي البارات المبردة، بل ومن أصوات أجهزة الراديو التي كانت تتدفق عالية من نوافذ البيوت المفتوحة ونحن نسير في الشارع. وفي الليل، كنا جميعنا قد أنجزنا أعمال يومنا دون أن نضيع كلمة واحدة من الخطاب.

ثمة أمران لفتا انتباهنا، نحن جميع من كنا نستمع إلى فيدل كاسترو لأول مرة. الأمر الأول هو قدرته المذهلة على شد الأسماع إليه. والثاني هو هشاشة صوته. إنه صوت أبح، يبدو وكأنه دون نَفَس. وقد قدم طبيب كان يستمع معنا إلى الخطاب عرضاً مريعاً حول طبيعة ذلك الضعف في الصوت، وانتهى إلى القول إن فيدل كاسترو، حتى دون خطابات أمازونية مثل خطاب ذلك اليوم، محكوم عليه بأن يفقد

صوته قبل انقضاء خمس سنوات. وبعد ذلك بزمن قصير ـ في آب ١٩٦٢ ـ بدا وكأن النبوءة قد أعطت أولى إشارات الإنذار، عندما أصابه البكم بعد أن أعلن في خطاب له عن تأميم الشركات الأمريكية. ولكنها كانت مجرد حادثة عارضة لم تتكرر. لقد انقضت سبع وعشرون سنة منذ ذلك الحين، وأتم فيدل كاسترو اثنتين وستين سنة من عمره، وما زال صوته يبدو غامضاً كعادته، ولكنه ما يزال كذلك وسيلته الفعالة التي لا تُقاوم في مهنة الكلمة المنطوقة الحساسة.

إن ثلاث ساعات بالنسبة له هي زمن وسطي مناسب لمحادثة عادية. ومن ثلاث ساعات إلى ثلاث ساعات أخرى تمضي أيامه وكأنها نفخة. ولأنه ليس حاكماً أكاديمياً يتمترس في مكاتبه، وإنما يمضي للبحث عن المشاكل في مواقعها، فإنه يمكن لسيارته الخفيفة أن تظهر في أي وقت وهي تنساب، دون جلبة دراجات نارية، حتى في ساعات الفجر المتقدم، عبر شوارع هافانا المقفرة، أو في أي طريق بري ناءٍ. ومن ذلك كله خرجت الأسطورة القائلة إنه شخص متفرد يمضي دون وجهة معينة، ومؤرق غير منضبط وغير رسمي، يمكنه أن يقوم بزياراته في أي وقت ليجعل من يزورهم يسهرون حتى الفجر.

لقد كان ذلك صحيحاً في بداية الثورة، حين كان ما يزال يحمل معه عادات السييرا مايسترا. ليس بسبب طول خطاباته حينئذ وحسب، وإنما لأنه لم يكن لديه أي عنوان ثابت ودقيق، ولم يكن يملك مكتباً خاصاً طوال أكثر من خمسة عشر عاماً، كما لم يكن لديه توقيت محدد لأي شيء. فكان مقر الحكومة يتنقل معه إلى حيث يكون، وكانت السلطة نفسها خاضعة لتشرده. لكن الأمور اختلفت الآن. فدون أن يناقض جموح الإلهام واندفاعه، انتهى إلى فرض نوع من النظام الحياتي على نفسه. لقد كان يقضي أياماً وليالي في التنقل، ينام خلالها نوماً متقطعاً، حيث يهده الإرهاق. أما الآن، فقد صار يسمح لنفسه بست ساعات من النوم الجيد على الأقل، رغم أنه هو نفسه لا يعرف في أي ساعة سيبدأ النوم كل اليوم. فذلك يعتمد على مجريات الأمور، وقد يكون في الساعة العاشرة ليلاً أو في السابعة من صباح اليوم التالي.

## التخلي عن التدخين

إنه يخصص عدة ساعات كل يوم للشؤون الروتينية، في مكتبه كرئيس لمجلس الدولة، حيث توجد طاولة جيدة

الترتيب، وأثاث مريح من جلد غير مدبوغ، وخزانة كتب تعكس بصورة جيدة اتساع ذوقه، ففيها كتب متنوعة: ابتداء من كتب حول الاتفاقيات المائية الدولية وحتى روايات الحب. وقد انتقل من تدخين نصف علبة من السيجار يومياً إلى الامتناع الكامل عن التدخين، وتمكن من تحقيق ذلك لأنه يتمتع فقط بقدرة معنوية كافية لمقاومة الإدمان على التدخين في البلد الذي اكتشف فيه كريستوف كولومبس التبغ، والذي يحصل على جزء كبير من دخله من تلك البضاعة. وقد اضطرته قابلية جسده للسمنة إلى إتباع نظام حمية غذائية دائم، وهي تضحية هائلة، لأن له شهية عظيمة، ولأنه صياد لوصفات المطابخ التي يحب أن يعدها بنفسه بنوع من الورع العلمي. ففي يوم أحد دون مكابح، وبعد أن تناول غداء مناسباً، أتبع ذلك بثمان عشرة كرة من البوظة. ولكنه على الرغم من ذلك لا يكاد يأكل في الأيام العادية سوى شريحة من السمك مع بعض الخضار المسلوقة، وغالباً ما يفعل ذلك حين يهزمه الجوع، وليس في موعد روتيني محدد. إنه يتمتع بحالة جسدية ممتازة تمكنه من ممارسة التمارين الرياضية لعدة ساعات يومياً، كما أنه يمارس السباحة بكثرة، ولا يشرب سوى كأس صغيرة من

الويسكي، يتناولها في رشفات صغيرة تكاد تكون غير مرئية. وقد تغلب على ضعفه تجاه الاسباغيتي الذي علمه طريقة إعداده القاصد الرسولي الأول للثورة، المونسنيور سيسر ساتشي. أما نوبات غضبه الهوميرية والآنية، فقد أصبحت اليوم أسطورة من أساطير الماضي، وقد تعلّم تصريف تهيجات مزاجه بصبر لا يُقاوم، وبانضباط حديدي. لكن ذلك كله ليس كافياً على أي حال، لأن ضيق الوقت يلاحقه ليفرض عليه توقيتاً فريداً، ولأن خصب مخيلته يقوده إلى ما هو غير وارد في الحسبان، إذ يمكن للمرء حين يلتقي به أن يعرف من أين سيبدأ، ولكنه لن يعرف أبداً إلى أين سينتهي. وليس غريباً أن يجد نفسه، في أي ليلة، وهو يطير في طائرة تتجه وجهة سرية، ليكون عراباً لحفلة زفاف، أو لاصطياد جراد البحر في أعالي البحار، أو ليتذوق أول الأجبان الفرنسية التي بدأ تصنيعها في إقليم كاماغوي.

لقد قال منذ زمن بعيد: «تَعلُّم الراحة لا يقل أهمية عن تَعلُّم العمل». لكن أساليب الراحة تبدو شديدة الخصوصية، ومن تلك الأساليب تبادل الحديث مثلاً. وفي إحدى المرات، غادر جلسة عمل مكثفة عند منتصف الليل تقريباً، وكانت تبدو عليه بوضوح إمارات الإرهاق، ثم رجع عند الفجر وقد

استعاد قواه تماماً بعد أن أمضى ساعتين في السباحة. أما الحفلات الخاصة فهي مخالفة لطبعه. إنه واحد من الكوبيين النادرين الذين لا يغنون ولا يرقصون، والحفلات القليلة التي يحضرها لا تلبث طبيعتها أن تتبدل فور وصوله إليها. ربما كان يجهل ذلك، وربما أنه لا يعي المهابة التي يفرضها حضوره الذي يهيمن على الجو كله على الفور، بالرغم من أنه ليس طويل القامة وليس ضخماً كما يبدو للوهلة الأولى. لقد رأيت أكثر الناس هدوءاً يفقدون السيطرة على أنفسهم أمامه، وذلك بمبالغتهم في الرصانة أو بمغالاتهم في إبداء الظرافة، دون أن يخطر ببالهم أنه مرتبك مثلهم، وأنه يقوم بمجهود كبير كي لا يلحظوا عليه ذلك. ولقد رأيت على الدوام أن صيغة الجمع التي يُكثر من استخدامها ليتحدث عن أعماله ليست أسلوباً للتفخيم كما تبدو في الظاهر، وإنما هي جواز مرور شعري يواري به خجله.

ما يحدث عند ذهابه إلى حفلة هو أن الرقص يتوقف، وتخمد الموسيقى، ويؤجل العشاء، ويلتم الحضور حوله ليشاركوا في المحادثة التي يشرع بها على الفور. ويمكنه أن يبقى على تلك الحال إلى أي ساعة، واقفاً، دون شراب أو طعام. وفي بعض الأحيان، وقبل أن يذهب إلى النوم، يطرق

في ساعة متأخرة جداً باب بيت أحد الأصدقاء، ممن تربطه بهم صداقة حميمة تتيح له الدخول دون سابق إنذار، ويقول إنه جاء لقضاء خمس دقائق فقط. يقول ذلك بمنتهى الصراحة والصدق، لدرجة أنه لا يجلس. وشيئاً فشيئاً يأخذ باستعادة نشاطه في المحادثة الجديدة، وبعد قليل يلقي بنفسه فوق مقعد، ويشد ساقيه قائلاً: «اشعر بأنني شخص جديد». إنه هكذا: عندما يرهقه الكلام، يستريح متكلماً.

## عادة الكتابة

لقد قال في إحدى المرات: «في إعادة تجسدي القادمة، أود أن أكون كاتباً». وهو يكتب فعلاً بصورة جيدة، ويحب ممارسة ذلك حتى وهو في سيارة سائرة. إنه يكتب في دفاتر صغيرة يضعها دائماً في متناول يده، ليكتب فيها كلما خطر له ذلك. إنها دفاتر صغيرة من ورق عادي، مغلفة بجلد أزرق، وقد أصبح عددها، في أرشيفه الخاص، لا حصر له مع مرور السنوات. أما خطه فدقيق ومختلط، على الرغم من أنه يبدو للوهلة الأولى بسيطاً مثل خط تلميذ. ويبدو أسلوبه في الكتابة أشبه بأسلوب كاتب محترف، فهو يصحح إحدى الجمل مثلاً، مرات عديدة، فيشطبها، ويحاول إعادة

صياغتها مـن جديـد في الهـامش. وليس من المسـتهجن أن يبحث عـن كلمـة مـا طـوال عـدة أيـام، منقبـاً في المعـاجم، ومستفسراً، إلى أن تروق العبارة لذوقه.

في حقبة السبعينات، أصيب بعدوى كتابة خطاباته التي اعتاد أن يرتجلها، فكان يكتبها ببطء وصرامة بالغين، حتى لتبدو وكأنها أجزاء سـاعة دقيقـة الصنـع. لكـن تلـك الميزة ذاتها هي التي هزمته. إذ بدت شخصيته فيدل كاسترو عنـد قراءة تلك الخطابات وكأنها شخصية أخـرى: أثـرت تلـك الطريقة على نبرة صوته وأسلوبه، بل وبدّلت نوعية الصوت كذلـك. ففـي سـاحة الثـورة الرحبـة، وأمـام نصـف مليـون شخص، كان يجد نفسه كالمخنوق بقميص الكلمات المكتوبـة الضاغط، فكان يخرج عن النص المكتوب كلما أتيح له ذلـك. وفي مناسبات أخرى، كان يجد أن طابعي الآلـة الكاتبـة قـد ارتكبوا خطأ ما أثناء طباعة الخطاب. وبدلاً مـن أن يصحـح الخطأ ويمر عليه مرور الكرام، كـان يقطـع القـراءة ويصحـح الخطأ بالقلم، مكرساً لذلك الأمر كل ما يحتاجه مـن وقـت. لم يكن يشعر بالرضا مطلقاً، على الرغم من جهوده في إضفاء الحرارة على الخطـاب. ومـع أنـه كـان يتوصـل إلى ذلـك في أحيان كثيرة، إلا أن تلـك الخطابـات المقيـدة كـانت تـترك

لديه إحساساً بالخيبة. صحيح أنها كانت تقول كل ما يود قوله، وربما أنها كانت تقوله بشكل أفضل، إلا أنها كانت تلغي حافز حياته الأكبر، ألا وهو انفعالات الإحساس بالخطر.

ويبدو بالتالي أن منبر الخطيب الارتجالي هو وسطه البيئي المناسب، بالرغم من اضطراره دوماً إلى تجاوز نوع من التململ الأولي الذي يعرفه عنه القليلون ولا ينكره هو نفسه. ففي بطاقة أرسلها إليّ منذ سنوات يطلب فيها مني المشاركة في احتفال عام، كتب يقول: «حاول أن تتغلب مرة على خوفك من الظهور الاستعراضي، مثلما أفعل أنا في أحيان كثيرة». إنه يحمل معه إلى المنصة، في بعض الحالات الخاصة فقط، بطاقة عليها بضع ملاحظات، يُخرجها من جيبه دون أية مراسم قبل أن يبدأ الخطاب، ويبقيها أمام ناظريه. ويبدأ دائماً بصوت يكاد يكون غير مسموع، ومتقطع حقاً، ويتقدم وسط الغمامة في اتجاه غير محدد، لكنه ينتهز أي بارقة ليكسب الموقع شبراً فشبراً، إلى أن يتمكن من توجيه ضربة خاطفة ويسيطر على مستمعيه. عندئذ يقوم بينه وبين الجمهور تيار متبادل يبعث الحماس في الاتجاهين ويخلق بين الجمهور وبينه تواطؤاً جدلياً، وفي هذا التوتر

المرهق، يجد جوهر نشوته. إنه الإلهام: حالة من الاندماج المبهر التي لا ينكرها إلا من لم ينالوا مجد معايشتها.

كانت الاحتفالات العامة في أول الأمر تبدأ عند وصوله، وكان موعد وصوله مضطرباً في دقته مثل اضطراب دقة هطول المطر. لكنه صار يأتي منذ سنوات في الموعد المحدد بدقة، وصار طول الخطبة يعتمد على استعداد المستمعين. لكن خطابات السنوات الأولى الطويلة التي كانت تبدو لا نهائية أصبحت جزءاً من الماضي الذي يختلط بالأسطورة، لأن الشيء الكثير الذي كان لا بد للشعب من أن يفهمه منذ البداية أصبح الآن أكثر من واضح، ثم إن فيدل كاسترو نفسه صار أكثر تكثيفاً بعد كل تلك المراحل الخطابية التعليمية. لم يسمعه أحد على الإطلاق يردد أي شعار من الشعارات المدرسية الشيوعية أو يستخدم نبرة النظام الطقوسية؛ أو تلك اللغة المتحجرة التي فقدت منذ زمن طويل علاقتها بالواقع، والتي ترتبط بها ارتباط الخاتم بالإصبع، صحافة مداحة وتذكارية تبدو وكأنها قد صُنعت لإخفاء الأمور وليس لنشرها. إنه عدو الدوغمائية بامتياز، ومخيلته المبدعة تمضي هائمة في مهاوي الهرطقة. قلما يستشهد بعبارات للآخرين، سواء في محادثاته أو على المنابر، اللهم إلا استشهاده بأقوال

خوسيه مارتي الذي يُبقي أعماله في متناول يده قرب السرير. فهو يعرف بعمق مجلدات أعماله الثمانية والعشرين، وكانت لديه العبقرية الكافية لدمج أفكار خوسيه مارتي في الدورة الدموية لثورة ماركسية. لكن جوهر فكره قد يكون في يقينه بأن العمل الجماهيري هو في أساسه اهتمام بالأفراد.

هذا ما يمكنه أن يفسر ثقته المطلقة بالاتصال المباشر. فحتى أشق الخطابات تبدو وكأنها محادثات عابرة، كتلك المحادثات التي كان يجريها مع الطلاب في فناء الجامعة في بداية الثورة. والواقع أنه ليس أمر نادر الحدوث، خصوصاً خارج هافانا، أن يستجوبه أحدهم وسط مظاهرة شعبية، وأن يقيم معه حواراً صارخاً. إن لديه لغة لكل مناسبة وأسلوباً في الإقناع يختلف حسب اختلاف مستمعيه، سواء أكانوا عمالاً، أو فلاحين، أو طلاباً، أو علماء، أو سياسيين، أو كتّاباً أو زائرين أجانب. فهو قادر على وضع نفسه في مستوى أي شخص، ويملك معلومات واسعة ومتنوعة تتيح له أن يتحرك بسهولة في جميع الأوساط. لكن شخصيته شديدة التعقيد ولا يمكن توقع تصرفاته مسبقاً، مما يجعل كل شخص يكون عنه صورة مختلفة بعد اللقاء نفسه معه.

ولكن هناك أمر معروف معرفة مؤكدة: فأينما يكون فيدل كاسترو، وكيفما يكون، ومع أي كائن يكون، فإنه موجود هناك لكي يكسب. ولا أظن أن في العالم بأسره خاسراً أسوأ منه. فسلوكه حيال الهزيمة، حتى في أمور الحياة اليومية الصغرى، يبدو وكأنه يستجيب إلى منطق خاص: إنه يرفض القبول بها، ولا يستكين لحظة واحدة ما لم يتوصل إلى قلب الحدود وتحويل الهزيمة إلى نصر. ومهما كان الأمر، وأينما كان، فإنه يدور بمجمله في أجواء المحادثة التي لا تنتهي.

يمكن للحوار أن يدور حول أي موضوع، حسب رغبة المستمع، ولكن كثيراً ما يحدث العكس: فيكون هو من يوجه الموضوع نفسه إلى جميع مستمعيه. وهذا ما يحدث عادة في الفترات التي يقوم فيها باستكشاف فكرة تحاصره. وليس هناك من هو أكثر إلحاحاً منه عندما يقرر الوصول إلى عمق أي شيء. وليس هناك أي مشروع شامل أو تفصيلي، إلا وينغمس فيه بعاطفة شرسة. وخصوصاً إذا كان عليه أن يواجه الخصوم. لأنه يكون عندئذ في أفضل مظهر، في أفضل موهبة، في أفضل مزاج. وقد قال له يوماً شخص يظن أنه يعرفه جيداً: «لا بد أن الأمور في أسوأ حال، لأنني أراك متألقاً».

وبالمقابل، هناك زائر أجنبي التقاه لأول مرة، وقال لي منذ سنوات طويلة: «إن فيدل يشيخ: فالليلة الماضية عاد حوالى سبع مرات إلى التحدث في الموضوع نفسه». فأوضحت له أن هذا التكرار الذي يقترب من الهوس هو أحد أساليبه في العمل. فموضوع الديون الخارجية في أميركا اللاتينية، على سبيل المثال، ظهر للمرة الأولى في محادثاته منذ نحو سنتين، وراح يتطور، ويتشعب، ويتعمق، إلى أن تحول إلى ما يشبه الكابوس. كان أول ما قاله، كنتيجة حسابية بسيطة، هو أن الديون عصية على الدفع. وشيئاً فشيئاً، وخلال ثلاث رحلات قمت بها في تلك السنة إلى هافانا، رحت أتعرف على اكتشافاته المتدرجة: انعكاس مسألة الديون على اقتصاديات البلدان، أثرها السياسي والاجتماعي، تأثيرها الحاسم في العلاقات الدولية، أهميتها الاحتياطية من أجل نهج سياسة توحيدية في أميركا اللاتينية. وأخيراً، دعا إلى مؤتمر حاشد في هافانا للمختصين وألقى خطاباً لم يترك فيه أي تساؤل من محاوراته السابقة إلا وأوضحه. وكان عندئذ قد توصل إلى رؤية شاملة تولى مرور الزمن وحده إثباتها.

يبدو لي أن أغرب ميزاته كسياسي هي تلك القـدرة علـى استشفاف تطورات حدث ما حتى نتائجه القصوى. كمـا لـو أنه قادر على رؤية الكتلة الظاهرة من جبل الجليد في الوقت نفسه الذي يرى فيه سبعة أثمان ذلك الجبل المغمورة. ولكنه لا يمارس هذه الموهبة بالوحي والإلهام، وإنما نتيجـة تفكـير شاق وعنيد. إنه محـاور دؤوب يمكنـه أن يكتشـف الجنـين الأول لفكرة ثم يواصـل تطويرهـا خـلال شـهور عديـدة عـبر محادثاتـه اللجوجـة، إلى أن يعلنهـا في صورتهـا النهائيـة، مثلما حـدث في قضيـة الديـن الخـارجي. حسـن: وبعـد أن يستنفد الموضوع كما لو أنه أكمـل دورة حيويـة: يحفظـه إلى الأبد.

مثل هذه الدوامة الكلاميـة تتطلـب دون ريـب معلومـات دائمة، ممضوغة ومهضومة جيداً. ومساعده الأكبر في ذلك هو الذاكرة، وهو يستغلها حتى الإنهاك في تدعيم خطابـات أو محاورات خاصة بمعلومات عقلانية مثقلة وعمليات حسـابية يجريها بسرعة لا تُصدق. ومهمته في مراكمة المعلومات تبـدأ منذ أن يستيقظ. فيكون فطوره ما لا يقل عن مئتي صفحة من أخبار العالم بأسره. وطوال اليوم، بالرغم من تحركه الدائـم، يلاحقونه إلى كل مكان بأخبار مسـتعجلة. وهـو نفسـه يقـدر

بأنه عليه أن يقرأ كل يوم ما لا يقل عن خمسين وثيقة. وفي بعض الأحيان يجب أن تضاف إليها تقارير الأجهزة الرسمية وزائريه، وكل ما يمكن أن يهم فضوله غير المحدود. وأي مبالغة في هذا المجال لا تعدو أن تكون مجرد تقدير تقريبي، حتى في أقصى الظروف مثل رحلة في طائرة. إنه يفضل عدم الطيران، وهو لا يفعل ذلك إلا عندما لا تكون هناك وسيلة أخرى. ولكن رحلاته الطائرة تكون سيئة بسبب لهفته لمعرفة كل شيء: فهو لا ينام ولا يقرأ ولا يكاد يأكل، ويطلب من طاقم الطائرة خرائط الرحلة كلما خطر له تساؤل. ويطلب تفسيراً لسبب اتخاذ هذا الطريق وليس ذاك الآخر، ولماذا يتبدل ضجيج المحركات، ولماذا تطفر الطائرة بالرغم من الطقس الجيد. ويجب أن تكون الإجابات دقيقة بالطبع، لأنه قادر على اكتشاف أدنى تناقض في أي عبارة عابرة.

مصدر معلوماته الحيوي الآخر بالطبع هو الكتب. وربما كان مظهر شخصية فيدل كاسترو الذي لا يتفق كثيراً مع الصورة التي خلقها خصومه عنه، هو أنه قارئ نهم. وليس هناك من يستطيع أن يفسر كيف يمكن له أن يجد الوقت الكافي ولا المنهج الذي يلجأ إليه للقراءة بهذه الكثرة

والسرعة، مع أنه يقول إنه لا يوجد ما هو خاص في ذلك. ففي كل سياراته، ابتداء من سيارة الأولدزموبيل الخرافية العتيقة، ثم سيارات الزيل السوفيتية المتتالية، وحتى المرسيدس الحالية، كان هناك على الدوام ضوء يتيح له القراءة ليلاً. وكثيراً ما كان يأخذ كتاباً عند الفجر، ثم يخوض نقاشاً حوله في الصباح التالي. وهو يقرأ بالإنكليزية، ولكنه لا يتكلمها. إلا أنه يفضل على أي حال القراءة بالقشتالية، وهو مستعد في أي وقت لقراءة أي ورقة مكتوبة تقع بين يديه. وعندما يحتاج لكتاب حديث الصدور وغير مترجم، يطلب ترجمته بسرعة. لقد أرسل له صديق طبيب، من باب المجاملة، نسخة من مؤلف له حول معالجة تشوهات المفاصل كان قد أصدره حديثاً، ولم يكن يخطر ببال الطبيب أنه سيقرأه بالطبع، ولكنه تلقى رسالة منه بعد أسبوع وفيها قائمة مطولة من الملاحظات. إنه قارئ مثابر للموضوعات الاقتصادية والتاريخية. وعندما قرأ مذكرات Lee Iacocca، اكتشف عدة أخطاء غير معقولة، فأرسل يطلب النسخة الإنكليزية من نيويورك ليقارنها بالاسبانية. وبالفعل، كان المترجم قد أخطأ مرة أخرى بكلمة «بليون» billon في اللغتين. إنه قارئ جيد للأدب، ويتابعه بشغف.

وأحمل على كاهل ضميري مسؤولية إدخالــه وإطلاعــه علــى كتــب الــ best-sellers ذات الاستهلاك السـريع، كوسـيلة للتطهر من آثار الوثائق الرسمية.

ومع ذلك، فإن مصدر معلوماته الفوري والأكثر خصوبـة، ما يزال هو المحادثات. ولديـه عـادة توجيـه أسـئلة سـريعة متتالية تشبه **ماتريوشكا**، الدمية الروسـية الـتي تُخـرج من داخلهـا دميـة أخـرى مشـابهة وأصغـر حجمـاً، ثـم أخـرى مشابهة وأصغر حجماً، حتى الوصول إلى أصغر حجم ممكن. أسئلة متوالية في تدفق فوري إلى أن يكتشف السبب في سبب السبب النهائي. ويتكبـد محـاوره مشـقة في عـدم الإحسـاس بأنــه يخضـع لاسـتجواب تفتيشـي. وعندمـا قـدم لـه زائــر أمريكي لاتيني معلومة متسرعة عن استهلاك مواطنيه لـلرز، قام هو بحسابات ذهنية سريعة، وقال: «غريب، كل مواطن منهم يأكل أربع ليبرات من الرز يومياً». ومع الزمـن يلاحـظ المرء أن تكتيكه البارع هو في السؤال عن أمور يعرفهـا، لكـي يؤكـد معلوماتـه؛ ولكـي يقـدر في بعـض الحـالات حجـم محاوره، ومعاملته وفق ذلك. إنه لا يضيـع فرصـة للحصـول على معلومات. فالرئيس الكولومبي بيليسـاريو بيتانكور الـذي كان يكـثر مـن اتصالاتـه الهاتفيـة بـه، علـى الرغـم مـن أن

أحدهما لا يعرف الآخر، وليست هناك علاقات دبلوماسية بين بلديهما، اتصل به يوماً من أجل مسألة عابرة. وقد قال لي فيدل كاسترو فيما بعد: «لقد انتهزت فرصة وجود وقت فراغ لدينا نحن الاثنين لأطلب منه بعض المعلومات عن وضع إنتاج البن في كولومبيا».

## ريبورتاجات شفوية

قليلة هي البلدان التي تعرف عليها قبل الثورة، وأما البلدان التي زارها فيما بعد في زيارات رسمية، فكان يجد نفسه فيها محكوماً بآفاق البروتوكول الضيقة. ومع ذلك، فإنه يتحدث عن تلك البلدان وعن كثير غيرها وكأنه قد زارها. فخلال حرب أنغولا قدم وصفاً تفصيلياً لإحدى المعارك في حفل استقبال رسمي، فكان من الصعب إقناع أحد الدبلوماسيين الأوربيين بأن فيدل كاسترو لم يشارك في تلك المعركة. والرواية التي قدمها في خطاب علني لقصة اعتقال واغتيال تشي غيفارا، أو روايته للهجوم على قصر لامونيدا في تشيلي وموت الرئيس سلفادور أليندي، أو روايته حول الأضرار التي سببها إعصار فلورا، كانت كلها ريبورتاجات شفوية عظيمة.

إن اسبانيا، أرض أجداده، هي فكرة ثابتة لديه. ورؤيته لأميركا اللاتينية في المستقبل هي الرؤية نفسها التي كانت لدى سيمون بوليفار وخوسيه مارتي: اتحاد ضمن إدارات حكم ذاتي يمكن له تغيير مصير العالم. ولكن البلاد التي يعرف عنها أكبر قدر من المعلومات، بعد كوبا، هي الولايات المتحدة. فهو يعرف بعمق طبيعة أناسها، وبنية سلطتها، والنوايا غير المعلنة لحكامها، وهذا كله يساعد في تجاوز عاصفة الحصار المستمرة. فعلى الرغم من القيود التي تفرضها حكومة الولايات المتحدة، هناك خط جوي شبه يومي ما بين هافانا وميامي، ولا يمر يوم دون أن يصل إلى كوبا زائرون أمريكيون من كل الأنواع، في رحلات خاصة أو في طائرات خاصة.

وقبيل الانتخابات يكون هناك فيض لا يتوقف من سياسيي كلا الحزبين. ويلتقي فيدل كاسترو مع كل من يستطيع لقاءهم، ويهتم بأن يلقوا رعاية جيدة بينما هم ينتظرون، ويسعى قدر الإمكان لتخصيص ما يكفي من الوقت ليتبادل معهم معلومات شاملة غير منشورة. إنها احتفالات حديث حقيقية. يواجههم بالحقائق، ويتحمل جيداً أن يواجهوه بها أيضاً. ويعطي الانطباع بأنه ليس

هناك ما يُسعده مثل إظهار وجهه الحقيقي لمن يأتون معبئين بالدعاية المعادية للقاء مع زعيم بربري. في إحدى المناسبات، وأمام فريق من أعضاء الكونغرس من الحزبين، بينهم رجال أعمال وكذلك ضابط من البنتاغون، قدم عرضاً شديد الواقعية موضحاً كيف غرس فيه أجداده الغاليسيون وأساتذته الجيزويت بعض المبادئ الأخلاقية التي أفادته في تكوين شخصيته، وانتهى إلى القول:

«إنني مسيحي»

فكان ذلك أشبه بإلقاء قنبلة حربية على الطاولة. فالأمريكيون الذين تربوا على ثقافة لا تفهم الحياة إلا بالأبيض والأسود، تجاوزوا الشروحات المسبقة وتوقفوا مبهورين عند النتيجة المدوية. ومع انتهاء الزيارة، مع أول أشعة الشمس، أعرب أحد أكثر أولئك البرلمانيين محافظة عن وجهة نظره المفاجئة بأنه لا يرى شخصاً أكثر فعالية من فيدل كاسترو للقيام بدور الوسيط ما بين أميركا اللاتينية والولايات المتحدة.

### مقابلات

الحقيقة أن كل من يذهب إلى كوبا يريد رؤيته بأي طريقة، بالرغم من أن هناك كثيرين ممن يحلمون برؤيته

على انفـراد. وخصوصـاً مـن الصحفيـين الأجـانب الذيـن لا يعتبرون عملهم ناجزاً ما لم يحصلوا على غنيمة إجراء مقابلة معه. وأظن أنه يود إرضاءهم جميعاً لـولا أن ذلـك مسـتحيل مادياً: ففي الوقت الحالي هناك ٣٠٠ طلـب رسمـي بانتظـار إجراءات قد تكون لانهائية. ودائما هناك صحفي مـا ينتظـر في أحد فنادق هافانا، بعد أن لجأ إلى كـل أنـواع الوسـاطات للقائه. بعضهم ينتظر شهوراً. ويغضبون لأنهم لا يعرفـون إلى من يلجؤون، لأنه ليس هناك من يعرف الإجراءات السـديدة من أجل الوصول إليه. والحقيقة أنه لا وجود لأية إجراءات. فليس مـن الغريـب أن يوجـه إليـه صحفـي محظـوظ سـؤالاً عارضاً في أثناء ظهـور علـني، ثـم ينتهـي الحـوار في مقابلـة تستمر عدة ساعات وتتعـرض لكـل الموضوعـات الـتي يمكـن تصورها. يتوقـف خلالهـا بتمعـن عنـد كـل موضـوع منهـا، ويغامر في التوغل في تشعباتها التي لا تخطر علـى بـال دون أن يتهاون مطلقاً في التقصي الدقيق، وهـو مـدرك أنـه يمكـن لكلمة واحدة يساء استخدامها أن تؤدي إلى أضـرار لا سـبيل إلى إصلاحها. وفي المقـابلات الرسميـة القليلـة جـداً يقدم في العادة كل الوقت الذي يُطلب منه، مع أنه يمـدد هـو نفسـه الوقـت فيمـا بعـد بمرونـة مرتجلـة، تشـجعه علـى ذلـك

ديناميكية الحوار. وفي بعض الحالات الخاصة جداً فقط، يطلب الإطلاع على مضمون الأسئلة قبل المقابلة. وهو لم يمتنع مطلقاً عن الإجابة عن أي سؤال، مهما كان استفزازياً، ولم يفقد الصبر مطلقاً. وتتحول الساعتان المخصصتان للمقابلة أحياناً إلى أربع ساعات، أو إلى ست ساعات في الغالب. أو إلى سبع عشرة ساعة، مثلما حدث في المقابلة التي أجراها غياني مينا للتلفزيون الإيطالي، وهي إحدى أطول المقابلات التي قدمها، وأكثرها كمالاً أيضاً.

وقليلة هي المقابلات التي تعجبه في النهاية، وخصوصاً المكتوبة منها. فمن أجل المساحة المخصصة للمقابلة تجري التضحية بالدقة وبالصبغة الخاصة بأسلوبه الشخصي. وهو يعتقد أن المقابلات التلفزيونية تنتهي إلى فقدان طبيعتها بسبب التقطيع الذي لا مفر منه، ويبدو له من غير العدل أن يضيع خمس ساعات من حياته من أجل برنامج مدته سبع دقائق. ولكن أكثر ما هو مؤسف، سواء بالنسبة إلى فيدل كاسترو أو مستمعيه، هو أن أفضل الصحفيين، وخصوصاً الأوربيين منهم، ليس لديهم أي فضول في مطابقة أسئلتهم مع واقع الشارع. فهم يتلهفون إلى غنيمة المقابلة بأسئلة يكتبونها وفق اهتمامات السياسة والأحكام الثقافية المسبقة

في بلدانهم، دون أن يبذلوا الجهد في تقصي كيف هي في الواقع كوبا اليوم، وما هي أحلام أناسها واحباطاتهم اليومية: أي حقيقة حيواتهم. إنهم بهذا ينتزعون من كوبيي الشارع فرصة التعبير عن أنفسهم أمام العالم، وينكرون على أنفسهم المكسب المهني في استجواب فيدل كاسترو، ليس حول الافتراضات الأوربية البعيدة جداً، وإنما حول اهتمامات شعبه بالذات، وخصوصاً عشية هذه القرارات والتحولات الكبيرة.

## قصور بيروقراطي

وأخيراً: بعد الاستماع إلى فيدل كاسترو في ظروف كثيرة ومتنوعة، تساءلت مرات عديدة عما إذا كان ولعه بالمحادثات لا يشكل استجابة لحاجة عضوية في الحفاظ بأي ثمن على خيط هاد من الحقيقة وسط السراب الهذياني للسلطة. لقد تساءلت عن ذلك في أثناء حوارات كثيرة، عامة وخاصة. وخصوصاً خلال أكثر المحاورات مشقة وعقماً، مع من يفقدون أمامه طبيعتهم وهدوءهم ويحدثونه في صيغ نظرية لا علاقة لها بالواقع. أو مع من يشعوذون الحقيقة كي لا يسببوا له مزيداً من القلق فوق ما لديه منه. وهو

يعرف ذلك. فقد قال يوماً لموظف فعل ذلك: «إنكم تخفون عني الحقائق كي لا تسببوا لي القلق، ولكنني حين أكتشفها أخيراً، تقتلني اللهفة لمواجهة الحقائق الكثيرة التي لم تخبروني بها». وأكثر تلك الحقائق خطورة مع ذلك هي التي يخفونها عنه للتغطية على قصور ما، ذلك أنه إلى جانب الإنجازات الهائلة التي حققتها الثورة ـ الإنجازات السياسية والعلمية والرياضية والثقافية ـ هناك قصور بيروقراطي هائل يؤثر تقريباً على كل مستويات الحياة اليومية، وبصورة خاصة على السعادة المنزلية، مما اضطر فيدل كاسترو، بعد ثلاثين سنة من انتصار الثورة، إلى الاهتمام شخصياً بشؤون استثنائية جداً مثل كيفية صنع الخبز وتوزيع البيرة.

ولكن كل شيء يكون مختلفاً عندما يتحدث إلى الناس في الشارع. فالمحادثة تكتسي عندئذ وضوح وصراحة المودة الواقعية العارية. لأنه لا يبقى عندئذ من ألقابه المدنية والعسكرية العديدة سوى اسم واحد: فيدل. فالناس يحيطون به دون مخاطرة، ويكلمونه دون تكلف، ويناقشونه، ويعارضونه، ويطالبونه، عبر قناة مباشرة، حيث تتدفق الحقيقة مزبدة. عندئذ، وليس في الجلسات الحميمة، يُكتشف الكائن الإنساني الفريد الذي لا يتيح بريق شخصيته

ملاحظته. هذا هو فيدل كاسترو الذي أظن أنني أعرفه، بعد ساعات لا حصر لها من محادثات لا يكاد يظهر فيها شبح السياسة. إنه رجل عادات متقشفة وأحلام لا تنضب، مع تربية جديّة على الطريقة القديمة، وذو كلمات متأنية وأساليب دقيقة، وغير قادر على استيعاب فكرة ما لم تكن هائلة. يحلم بأن يتوصل علماؤه إلى اكتشاف دواء نهائي للسرطان، وقد أبدع سياسة خارجية لقوة عظمى في جزيرة دون مياه عذبة، وأصغر بـ ٨٤ مرة من عدوه الرئيسي. وهو يحمي علاقاته الحميمة بقوة إلى حد تحولت معه حياته الخاصة إلى الأحجية الأشد انغلاقاً في أسطورته. وهو مقتنع قناعة شبه صوفية بأن الإنجاز الأكبر للكائن البشري هو جودة تكوين وعيه، وأنه يمكن للحوافز الأخلاقية، أكثر بكثير من الحوافز المادية، أن تغير العالم وتدفع حركة التاريخ. وأظن أنه أحد أكبر مثاليي عصرنا، وربما كانت هذه هي فضيلته الكبرى، مع أنها كانت خطره الأكبر أيضاً.

## التوقف عند إحدى النواصي

كثيراً ما رأيته يأتي إلى بيتي في وقت متأخر من الليل، وهو ما يزال يجرجر فتات يوم واسع المقاييس. وكثيراً ما

سألته كيف تمضي الأمور، وأكثر من مرة أجابني: «على ما يرام: فكل خزانات الماء ممتلئة». رأيته يفتح الثلاجة ويتناول قطعة جبن، ربما تكون أول شيء يتناوله منذ الفطور. رأيته يتصل هاتفياً بصديقة من مكسيكو ليطلب منها وصفة طبق من الطعام كان قد أعجبه، ورأيته يستنسخ الوصفة وهو مستند إلى الحاجز، ما بين بقايا العشاء التي لم تنظف بعد، بينما أحدهم يغني من التلفزيون أغنية قديمة: **الحياة قطار سريع ينطلق بسرعة ألف فرسخ.** وسمعته في ساعات حنينه القليلة يتذكر الصباحات الرعوية في طفولته الريفية، وخطيبة أيام الشباب التي ذهبت، والأشياء التي كان بإمكانه أن يفعلها بطريقة أخرى ليكسب مزيداً من الوقت في الحياة. وفي إحدى الليالي، بينما كان يأكل ببطء ملاعق من البوظة، رأيته مثقلاً جداً بمسؤولية حيوات الآخرين الكثيرة، وبعيداً عن نفسه، حتى بدا لي للحظة مختلفاً عما كان عليه دائماً. عندئذ سألته ما هو أحب شيء يود أن يفعله في هذه الدنيا. فرد عليّ فوراً: «أن أقف عند إحدى النواصي».

همنغواينا

وصل إرنست ميلر همنغواي إلى هافانا لأول مرة في نيسان (ابريل) ١٩٢٨، على متن المركب البخاري الإنكليزي أوريسا الذي نقله من روشيل إلى كايو هويسو في رحلة استمرت أسبوعين. وكانت ترافقه زوجته الثانية باولين بفيفر، وكان قد تزوج منها قبل أقل من عشرة أشهر، ولم يكن لدية ولا لديها من الاهتمام بتلك المدينة الكاريبية أكثر من كونها محطة تروبيكالية ليومين بعد اجتياز محيط فسيح وقضاء شتاء قاس في فرنسا. كان عمر همنغواي حينئذ ثمانية وعشرين عاماً، وكان قد عمل مراسلاً صحفياً في أوربا وسائق سيارة إسعاف خلال الحرب العالمية الأولى، كما كان قد نشر روايته الأولى محققاً بعض النجاح. ولكنه كان ما يزال بعيداً

عن أن يكــون كاتبــاً مشــهوراً، ومــا يــزال بحاجــة إلى عمــل ثانوي لتأمين لقمة عيشه، ولم يكن لــه بيــت مســتقل في أي مكان من العالم. أما باولين بالمقابل، فكانت ما يسمى آنذاك امرأة مجتمع. إنها ابنة أخ شــخص أمريكــي شمــالي مشــهور يدللها وكأنها حفيدته، وكانت تملك كل شــيء في الحيــاة، بما في ذلك الجمال النجومي والمرح الملتبس لزوجة فرانسيس ماكومبير. ولكن ذلك الشهر لم يكن نيسانها-(أبريلها) الأفضل. فقد كانت حبلى وضجرة من البحر، وكانت الرغبة الوحيدة لكليهما هي الوصول إلى كايو هويسو في أسرع وقــت، حيــث سيستقران ليكمل همنغواي روايته الثانية: وداعاً للسلاح.

كانت هافانا آنذاك ـ وما تزال الآن ـ إحدى أجمل مــدن العالم. فقد كان الدكتاتور خيراردو ماتشادو في أوج هذياناتــه الفرعونيــة، مدعومــاً بالازدهــارات الأخــيرة لفــورة ســكرية حديثــة وبحمايــة الولايــات المتحــدة لــه. وكــان قــد قطــع العلاقــات الـتي أقامتهـا الحكومـات السـابقة مــع مصــرف مورغــان، وبــدأ يعيــش كمحظيــة علنيــة لمصــرف آل روكفلــر التشيس ناشيونال بنك الذي كان ينكــر عليــه القليــل مقــابل الحصول على كل شيء. وكانت الآثار المدمرة للتقــدم المــادي تظهر للعيان في كــل مكــان، ولم يكــن بإمكــان همنغــواي أن

يراها دون مبالاة من نوافذ سيارة باكارد مستأجرة في الحديقة المركزية. ممر الكورنيش، الذي كانت أعمال حمايته وتجميله قد بدأت في عهد آخر، كان يمتد حتى يبلغ طوله الحالي، وكانت تظهر شوارع جديدة ومنازل مليونيريين إلى الغرب من المدينة القديمة. ولكن العمل المعماري الأكبر سيكون البناء القبيح للكابيتول الوطني ـ المنسوخ حجراً حجراً عن كابيتول واشنطن ـ والذي عمل في محجره حَجّار يدعى إنريكي ليستر، وهو الذي سيصبح بعد سنوات واحداً من جنرالات الحرب الأهلية الاسبانية الأسطوريين.

أما الدعارة الجنونية التي كانت ستحول هافانا عما قريب إلى ماخور الولايات المتحدة الفاخر، فكانت ما تزال تحتفظ في ذلك الحين بقناع من البراءة يتمثل في مدارس تعليم الرقص. وكانت تدعى أكاديميات الرقص، وكانت فتياتها المرحات ـ نصف عذراوات ونصف عاهرات ـ يكسبن سنتاً من كل خمس سنتات يحصلن عليها من الرقص، وكن يعرفن باسم لا يمكن له أن يمر دون مبالاة بالنسبة إلى كاتب: **الأكاديميات**. وعلى أرائك المسرح الوطني المحترم، كانت قد أقيمت منصة لحفلات الرقص العامة، وكان

الحدث الأكبر فيها هو المسابقة السنوية للرقص. لقد وصل ارتهان الدكتاتور ماتشادو للولايات المتحدة إلى حد التلاعب بلجنة التحكيم في مسابقات الفاضلين تلك وفي أكثر بلدان العالم رقصاً لكي يكسب المسابقة سفير الولايات المتحدة هاري ف. غوغينهيم.

من الساعات الثماني والأربعين تلك التي أمضاها همنغواي في هافانا لم يبق أي أثر في أعماله. صحيح أنه كان يقوم بتلميحات ذكية جداً في مقالاته الصحفية عن الأماكن التي يزورها والناس الذين يتعرف عليهم، ولكنه كان قد فرض على نفسه آنذاك استراحة من عمله كصحفي لكي يكرس نفسه كلياً لكتابة الروايات. ومع ذلك، فقد كتب بعد ست سنوات من ذلك مقاله الأول كعائد إلى الصحافة، وكان حول موضوع كوبي. ومنذ ذلك الحين كتب نحو ست مقالات حول زيارته تلك إلى كوبا، ولكنه لم يُضمِّن أياً منها إشارات تفيد في إعادة بناء حياته الخاصة، فقد كان يشير فيها إلى الهوى الذي كان يسيطر عليه آنذاك: حملات صيد السمك الكبرى. فهو يقول في عام ١٩٥٦ : «هذا الصيد هو ما كان ينقلنا إلى كوبا في أزمنة أخرى.» وتسمح لنا هذه الجملة بالتفكير في أنه في اللحظة التي كتبت فيها، وكان همنغواي

قد أمضى عشرين سنة من العيش في كوبا، كانت هناك أسباب أعمق من ذلك لأقامته في كوبا أو على الأقل أسباب مختلفة عن مجرد متعة الصيد.

لم تكن مسألة حب من النظرة الأولى، وإنما عملية بطيئة وشاقة، تظهر حميميتها مبعثرة ومشفرة في مجمل أعماله الناضجة تقريباً. ففي عام ١٩٣٢، عندما قام برحلته الأولى إلى كوبا لصيد سمك السيف، كان يبدو مقتنعاً بأنه قد وجد أخيراً مسكناً ثابتاً في كايو هويسو، حيث كان قد أنجب ابناً وألف روايته الثانية، وحيث غرس دون ريب شجرة لكي يكون الرجل الكامل كما في المثل الشائع. ومنذ ذلك الحين قام بعدد لا حصر له من رحلات الذهاب والإياب برفقة صديقه جو راسل الذي كان يملك Sloppy Joe في كايو هويسو، وكان يستخدم الصيد كما يبدو كغطاء لأعمال أخرى أوفر ربحاً. «لقد أدخل في إحدى المرات إلى كوبا (إلى كايو هويسو) أكبر شحنة من المشروبات الروحية حتى ذلك الحين»، هذا ما كتبه همنغواي. وقد كانت مشروبات مهربة بالطبع، في وقت كان فيه سكيرو الولايات المتحدة يحتضرون ظمأ بسبب **القانون الجاف**. ولكن تلك الرحلات الخاطئة التي كان فيها كل شيء ما عدا الأدب، أتاحت

لهمنغواي الاتصال المباشر بأناس البحر الطيبين الذين سيصبحون أصدقاءه حتى الممات، وكشفت له كذلك عن عالم سيشكل دعامة أعماله التالية. وقد كشف همنغواي نفسه في مقال بمجلة هوليدي في تموز (يوليو) ١٩٤٩، عمن كان أصدقاؤه الكوبيون آنذاك، إذ كتب يقول: «باعة يانصيب أعرفهم منذ سنوات طويلة، ورجال شرطة قدموا لي خدمات مقابل الأسماك التي كنت أهديها إليهم، وأصحاب زوارق تجذيف أضاعوا أرباح يوم كامل وهم يجلسون معي في لعبة «لوي الأذرع»، ومعارف يمرون في سيارة من الميناء أو على الكورنيش ويحيونني ملوحين بأيديهم، فأرد لهم التحية حتى عندما لا أتمكن من التعرف عليهم عن بعد.» هذا يعني أن همنغواي كان يعتبر منذ ذلك الحين شخصية مألوفة في شوارع هافانا.

وفي هذه الفترة أيضاً عرف الفلوريديتا، وهو بار مع مطعم مأكولات بحرية أقيم منذ القرن الماضي، ومازال موجوداً إلى الآن بزخارفه المذهبة وستائره الأسقفية نفسها. وهناك رَوّجَ **الدايكيري**، وهو تركيبة سعيدة من روم الجزيرة الصافي مع مسحوق الثلج وعصير الليمون، هذا الشراب الذي ساهم همنغواي في ترويجه في نصف العالم. ولكن، وحسب ما

كتب هو نفسه فيما بعد، لم يكن سبب اهتمامه الأساسي بذلك المكان هو الشراب والطعام بقدر ما هي الرغبة في اللقاء مع التيار الجارف من مواطنيه الذين كانوا يمرون من المدينة. فقد كتب: «كانوا أناساً من كل ولايات الاتحاد، ومن أماكن كثيرة كان أحدنا قد أقام فيها؛ بحارة من الأسطول، ملاحون، موظفو جمارك ومن إدارة الهجرة، مقامرون، دبلوماسيونَ، أدباء ناشئون، وكتّاب جيدون أو سيئون، أطباء وجراحون جاؤوا إلى العاصمة لحضور مؤتمرات علمية متنوعة، أعضاء في الفرقة الأمريكية، رياضيون، أفراد في أوضاع مالية سيئة، وأشخاص سيتعرضون للاغتيال خلال أسبوع أو سنة، وعملاء لمكتب التحقيقات الفيدرالي، ومدير مصرف حيث يودع أحدنا نقوده، وبعض الأشخاص غريبي الأطوار والكثير من الأصدقاء الكوبيين.» هذا الاستذكار قام به همنغواي حين كان قد نال جائزة نوبل، وهو يبدو أقرب إلى دليل هاتف حنيني منه إلى ذكرى صحفية. فمن الصعب الآن إعادة قراءة أحد أعماله دون تذكر شخصيات كثيرة من هذه القائمة، متبدلين في المكان والزمان ومتحولين عبر الأدب المكتوب، ولكنهم موسومون دون مناص بتعميد بار فلوريديتا، حيث

يوجد حالياً تمثال نصفي لهمنغواي في مِشكاة في الجدار، ونادل عجوز من تلك الأزمنة لا يمل من الإشارة للسياح إلى المقعد الذي كان يجلس عليه الكاتب عند الكونتوار.

وبالقرب من الفلوريديتا يوجد فندق آمبوس موندوس، حيث كان همنغواي يستأجر غرفة كلما أراد أن ينام في البر، وانتهى به الأمر إلى تحويل تلك الغرفة إلى مكان دائم للكتابة بعد عودته من الحرب الأهلية الاسبانية. لقد كان يستأجر الغرفة نفسها دائماً: إنها الحجرة التي دون رقم في الزاوية الشمالية الشرقية من الطابق الخامس. ويصفها همنغواي بالقول: «نوافذها تطل على الكتدرائية القديمة وعلى مدخل الميناء وعلى البحر من الجهة الشمالية، وتطل من الشرق على شبه جزيرة كاسابلانكا وعلى أسطح البيوت الممتدة حتى الميناء وعلى اتساع الميناء كله.» ولم أستطع أن أفهم السبب الذي جعل همنغواي يستبعد من تعداده هذا قصر القادة العامين الاستعماريين، وهو أجمل بناء يظهر من نافذته، وما يزال إلى الآن أحد أجمل الأبنية في هافانا. ولكن همنغواي نفسه قال ذلك بعد عدة سنوات، في مقابلته التاريخية مع جورج بليمبتون: «فندق آمبوس موندوس كان مكاناً جيداً للكتابة.» من المحتمل أن هذا التصريح كان

يوجد حالياً تمثال نصفي لهمنغواي في مِشكاة في الجدار، ونادل عجوز من تلك الأزمنة لا يمل من الإشارة للسياح إلى المقعد الذي كان يجلس عليه الكاتب عند الكونتوار.

وبالقرب من الفلوريديتا يوجد فندق آمبوس موندوس، حيث كان همنغواي يستأجر غرفة كلما أراد أن ينام في البر، وانتهى به الأمر إلى تحويل تلك الغرفة إلى مكان دائم للكتابة بعد عودته من الحرب الأهلية الاسبانية. لقد كان يستأجر الغرفة نفسها دائماً: إنها الحجرة التي دون رقم في الزاوية الشمالية الشرقية من الطابق الخامس. ويصفها همنغواي بالقول: «نوافذها تطل على الكتدرائية القديمة وعلى مدخل الميناء وعلى البحر من الجهة الشمالية، وتطل من الشرق على شبه جزيرة كاسابلانكا وعلى أسطح البيوت الممتدة حتى الميناء وعلى اتساع الميناء كله.» ولم أستطع أن أفهم السبب الذي جعل همنغواي يستبعد من تعداده هذا قصر القادة العامين الاستعماريين، وهو أجمل بناء يظهر من نافذته، وما يزال إلى الآن أحد أجمل الأبنية في هافانا. ولكن همنغواي نفسه قال ذلك بعد عدة سنوات، في مقابلته التاريخية مع جورج بليمبتون: «فندق آمبوس موندوس كان مكاناً جيداً للكتابة.» من المحتمل أن هذا التصريح كان

مضمخاً بالحنين، ذلك أن تلك الغرفة لم تكن بأي حال المكان النظيف وجيد الإضاءة الذي كان يحلم همنغواي بالكتابة فيه. لقد كانت حجرة كئيبة مساحتها ستة عشر متراً مربعاً، فيها سرير مزدوج من خشب عادي، وكوميدينو على كل جانب من جانبي السرير، وطاولة للكتابة مع كرسي. لقد صار آمبوس موندوس في الوقت الحالي فندقاً حكومياً مخصصاً لأساتذة وموظفي وزارة التعليم العالي، ولكن غرفة الطابق الخامس في الركن الشمالي الشرقي تبقى مغلقة وعلى حالها تخليداً لذكرى النزيل اللامع، بل وفيها كذلك نسخة من الدون كيخوته بالاسبانية، في مجلدين، موضوعة كيفما اتفق على الطاولة.

عندما يفكر أحدنا بالدقة التي كان همنغواي يختار فيها الأماكن للكتابة، فإنه لا يمكن أن يكون هناك سوى تفسير واحد لتفضيله فندق آمبوس موندوس: فدون أن ينوي ذلك، وربما دون أن يعلم ذلك أيضاً، كان ينقاد لمفاتن أخرى في كوبا، مختلفة وأشد صعوبة في حل رموزها من اصطياد الأسماك الكبيرة في أيلول (سبتمبر) وأكثر أهمية لروحه من جدران غرفته الأربعة. ومع ذلك، فإن أي امرأة يكون عليها أن تنتظر انتهاءه من عمله اليومي ككاتب لكي تصبح زوجته

من جديد، ما كانت لتستطيع تحمل تلك الغرفة التي بلا حياة. وقد هجرته باولين بفيفير الجميلة في أشد لحظات حياته قسوة. ولكن مارثا غيلهورن التي تزوج منها همنغواي بعد وقت قصير، وجدت الحل الذكي، حيث يمكن لزوجها أن يكتب على هواه وأن يجعلها سعيدة في الوقت نفسه. وهكذا وجدت في الإعلانات المبوبة في الصحف ذلك الملجأ الريفي الرائع في فينكا فيخيا، على بعد فرسخين ونصف عن هافانا، فاستأجرته في أول الأمر بمئة دولار في الشهر، ثم اشتراه همنغواي فيما بعد بمبلغ ثمانية عشر ألف عداً ونقداً. لقد جرت العادة أن يوجه إلى كتّاب كثيرين ممن يملكون عدة بيوت في أماكن مختلفة من العالم سؤال عن البيت الذي يعتبرونه مسكنهم الأساسي، وجميعهم تقريباً يجيبون بأنه البيت الذي توجد فيه كتبهم. وقد كان لدى همنغواي في فينكا فيخيا تسعة آلاف كتاب إضافة إلى أربعة كلاب وسبع وخمسين قطة.

لقد عاش همنغواي في هافانا ما مجموعه اثنتان وعشرون سنة. وفي مقال منشور سنة ١٩٤٩، حاول هو نفسه أن يجيب على السؤال عن السبب الذي دفعه لأن يحيا هناك كل هذا الوقت، وقد تاه في تعداد مشتت، بل وفيه بعض

التناقض. تحدث عن النسيم البحري البارد والعليل في أيام الحر، وتحدث عن إمكانية تربية ديوك المصارعة، وعن العظاءات التي تعيش في العرائش، وعن أصناف المانجا الثمانية عشرة التي في فناء بيته، وعن النادي الرياضي إلى جانب الطريق العام حيث يمكنه الرهان بقوة على الرماية، وتحدث مرة أخرى عن تيار الخليج الذي لا يبعد إلا ٤٥ دقيقة عن بيته، وحيث يمكنه ممارسة صيدٍ أفضل وأوفر من أي مكان رآه في حياته. ومع ذلك، ووسط كل هذه التبريرات التي هي أقرب إلى التملص، أدخل فقرة كاشفة. فقد كتب يقول: «يعيش المرء في هذه الجزيرة لأنه... يمكن تغطية جرس الهاتف بورقة لتفادي أي اتصال، ولأنه بالإمكان العمل في برودة الصباح براحة أكبر من أي مكان آخر» ويضيف في نهاية هذه الفقرة ما يمكن أن يكون قد كتبه سهواً أو تغزلاً: «ولكن هذا سر من أسرار المهنة» ولم يكن بحاجة إلى التنبيه إلى ذلك، فليس هناك تقريباً من يجهل بان المكان الذي يُكتب فيه هو أحد الألغاز التي لا حل لها في الإبداع الأدبي.

لقد كانت هافانا عموماً، وفينكا فيخيا بصورة خاصة، هي مكان الإقامة الحقيقي الوحيد لهمنغواي في حياته.

ففيها أمضى تقريباً نصف سنوات حياته النافعة ككاتب، وكتب فيها أعماله الكبرى: قسم من رواية «**لمن تقرع الأجراس**»، و«**عبر النهر وبين الأشجار**»، و«**الشيخ والبحر**»، و«**كانت باريس احتفالاً**»، و«**جزر في الخليج**». وكتب كذلك الكثير من المقالات الصحفية ـ بما في ذلك «الصيف الدامي» ـ وقام بمحاولات لا تحصى للرواية البروستية الغريبة التي كان يرغب على الدوام في كتابتها حول الجو والأرض والبحر. ومع ذلك، فإن هذه السنوات هي المعروفة أقل من كل سنوات حياته، ليس لأنها كانت أكثر السنوات حميمية وحسب، وإنما لأن كتبة سيرة حياته قد توافقوا كذلك على المرور عليها بسرعة خاطفة مثيرة للريبة.

بينما كان همنغواي يشيد حرفاً فحرفاً عالمه الخاص الذي سيستند إليه مجده، كان مشروع الخضوع الوطني الذي بدأه الدكتاتور خيراردو ماتشادو يصل إلى أوجه، ويتخذ نهاية غير سعيدة على يد من خلفوه. فالفساد السياسي والأخلاقي اتخذ أبعاد الفضائح البابلية. والخضوع للولايات المتحدة الذي كان يظهر للعين المجردة في كل مكان، وصل إلى مظهر رواية خيالية: فالجسر البحري

اليومي من فلوريدا كان يحمل إلى هافانا عربة قطار تُربط بعد ذلك بالقطار المحلي لتموين الجزيرة بالمواد الأساسية من إنتاج الولايات المتحدة، بما في ذلك السمك الطازج الذي يتم اصطياده في مياه كوبا نفسها.

هناك من يستسهل القول بأن همنغواي لم يكن أكثر من مشاهد سلبي، ما لم يكن متواطئاً صامتاً، في عملية تغيير الطبيعة الثقافية الضخمة تلك. وتفكيره السياسي الذي عبر عنه بصورة واضحة ومؤثرة لا لبس فيها خلال الحرب الأهلية الاسبانية، يبدو أحجية عصية على الحل حيال مأساة كوبا. وليست هناك مؤشرات إلى أنه حاول يوماً إقامة اتصال مع الوسط الثقافي والفني في هافانا، وقد كان من أكثر الأوساط زخماً في القارة على الرغم من الخسة الرسمية والشهوانية العامة. وهذه اللامبالاة لا تبدو موجهة إلى أجواء الكاريبي وحدها، وإنما إلى أميركا اللاتينية بأسرها التي لم يتعرف عليها مطلقاً، ولم تبق أي إشارة جدية إليها في أعماله. والبلدان الوحيدان اللذان زارهما في أميركا اللاتينية هما المكسيك في عام ١٩٤٢، والبيرو في أثناء ترؤسه حملة البحث عن سمكة ضخمة من أجل فيلم الشيخ والبحر، ولكنه لم يكد ينزل إلى البر آنذاك. وقد لخص همنغواي تلك

المغامرة المؤثرة كما يلي: «أمضينا ٣٢ يوماً في الصيد منذ الفجر إلى أن تحول ظلال الغسق دون مواصلتنا التقاط الصور.»

هناك مظهر آخر قابل للنقاش في السنوات الأخيرة من حياة همنغواي، ألا وهو موقفه من الثورة الكوبية. صحيح أن الذاكرة لا تتضمن رأياً له في التأييد العلني، ولا يعرف كذلك أن له رأياً مخالفاً، باستثناء تلك الأقوال محدودة الثقة التي يدعي بعض كتبة سيرته المتحيزين أنه أخبرهم بها في جلسات خاصة. بعد سنة تقريباً من انتصار الثورة، وحين كان قد طُرح عداء حكومة الولايات المتحدة للثورة الكوبية، أجرى الصحفي الأرجنتيني رودلفو والتش مقابلة فورية مع همنغواي وسط ازدحام وصراخ الحشود في مطار هافانا. وفي تلك المقابلة التي كان يتذكر رودلفو والتش بأنها أقصر مقابلة في حياته الصحفية، وقد كانت دون شك أقصر وإحدى آخر المقابلات في حياة همنغواي، أوضح هذا الأخير صارخاً باسبانيته السليمة: «سنكسب. نحن الكوبيون سنكسب.» ثم أضاف بالإنكليزية دون أن يسأله أحد ذلك: «I'm not yanky, you know.» ولم يستطع إكمال العبارة في تلك الفوضى. وبعد

سنة ونصف من ذلك أنهى حياته، دون أن يكون قد أتم تلك الجملة التي أُخضعت لكل أنواع التفسيرات من الجانبين.

ومع ذلك، فإن الثورة الكوبية تقف كما يبدو على هامش هذا الجدل الأجوف. فليس هناك كاتب ـ باستثناء خوسيه مارتي بالطبع ـ نال في كوبا مثل التكريم الذي ناله همنغواي على كل المستويات. وقد كان فيدل كاسترو نفسه، ومنذ البداية، محرك كل ذلك التقدير، بما في ذلك أقله شأناً. فكان هو نفسه من اهتم بزوجة همنغواي الأخيرة ــ ماري ويلش ـ في المرتين اللتين جاءت فيهما إلى هافانا بعد موت زوجها. وكانا هما من اتفقا على تفاصيل إبقاء البيت في فينكا فيخيا على حاله، مثلما هو الآن، وتحويله إلى متحف حي إلى حد يشعر المرء معه أحياناً بأن الكاتب يتجول في الغرف بحذائه الضخم كميت. والشيء الوحيد الذي أخذته الأرملة هو لوحات المجموعة الخاصة الرائعة لأفضل الرسامين المعاصرين. وخلال زيارتها الأخيرة، في عام ١٩٧٧، أعلن فيدل كاسترو أمام جماعة من الصحفيين الأمريكيين أن همنغواي هو كاتبه المفضل. ولا بد من معرفة فيدل كاسترو لمعرفة أنه لا يقول مطلقاً مثل هذا الكلام

لمجرد المجاملة، وأنه كان عليه أن يتجاوز على أي حال بعض الاعتبارات السياسية الهامة ليقول ذلك بكل تلك القناعة. والواقع أن فيدل كاسترو كان منذ سنوات طويلة قارئاً مثابراً لهمنغوي، وقد كان يعرفه بعمق، ويحب التحدث عنه ويعرف كيف يدافع عنه بحجج مقنعة. وفي رحلاته الطويلة والكثيرة إلى مناطق البلاد الداخلية، يحمل معه على الدوام في سيارته كومة مختلطة من الوثائق الحكومية ليدرسها. وكثيراً ما يكون بين تلك الوثائق مجلدا أعمال همنغواي المختارة المجلدين بالأحمر.

ليس من السهل على أحد في كل الأحوال أن يحاول الآن إكمال جملة همنغواي التي أبقاها مبتورة في مطار هافانا. فالواقع أنه كان هناك على الدوام همنغوايان اثنان مختلفان ومتناقضان أحياناً. كان هناك واحد للاستهلاك العالمي ـ نصف نجم سينمائي، ونصف مغامر ـ يستعرض نفسه على هواه في أكثر الأماكن لفتاً للأنظار في العالم. يدخل مع طليعة قوات التحرير إلى فندق ريتز في باريس، ويرعى مصارعي الثيران الرائجين في مهرجانات اسبانيا، ويطلب تصويره مع أشد ممثلات السينما تألقاً، ومع أكثر الملاكمين جرأة، ومع أشد حملة المسدسات ضبابية، ويقتل الأسد أولاً

ثم الجاموس البري ثم الخرتيت في مرابع كينيا، ويمنح نفسه كذلك ترف التحطم في طائرتين متتاليتين. كان هذا هو همنغواي الاستعراض العام الذي لم يقرأ كتاباً واحداً والذي ربما لم يحب أحداً في العالم، والذي لا يمكن أن تبقى له جملة دون أن يكملها. ولكن كان ثمة همنغواي آخر في هافانا، يختبئ من نفسه في بيت محاط بأشجار ضخمة، راحت تتراكم في حجراته على امتداد السنوات تذكارات الفنون الرجولية التي كان همنغواي الدنيوي يجمعها في إبحاراته وعوداته. إنه الفنان الحرفي المؤرق الذي لم يعرفه أحد معرفة مؤكدة، والمنهوك بعبودية ميوله التي لا سبيل إلى إشباعها، والذي لم تبق لديه جملة واحدة وحسب، وإنما جمل كثيرة لم تكتمل.

كيف كان همنغواي السري هذا.

إنه السؤال الذي واجه الصحفي الكوبي الشاب نوربيرتو فوينتس، في حزيران ١٩٦١، حين أرسله رئيس تحريره إلى فينكا فيخيا ليكتب مقالاً حول الرجل الذي هشم رأسه في الأسبوع السابق بإطلاق رصاصة في حلقه. الشيء الوحيد الذي كان نوربيرتو فوينتس يعرفه عن همنغواي في ذلك الوقت هو تلك الأشياء القليلة التي أخبره بها أبوه في مساء

أحد الأيام عندما التقيا به صدفة في مصعد أحد الفنادق. وفي إحدى المرات ـ عندما لم يكن قد تجاوز العاشرة من عمره ـ رآه يمر في المقعد الخلفي لسيارة بلايموث طويلة سوداء، وراوده الإحساس بأنهم يأخذونه ليدفنوه جالساً في العربة الجنائزية الفاخرة المعروفة جيداً في كل حانات المدينة. انطلاقاً من تلك المعايشات الخاطفة، انهمك نوربيرتو فوينتس في المهمة الضخمة لتقصي كيف كان همنغواي الكوبي الذي يبدو أنه كانت لبعض كتّاب سيرته مصلحة ليس في إخفائه وحسب، وإنما في تشويهه أيضاً. وقد احتاج لسنوات طويلة من التحقيق والتحري الدقيق، والمقابلات الصعبة، وإعادة بناء أحداث كانت تبدو مستحيلة، إلى أن أخرجه من ذاكرة الكوبيين المجهولين الذين شاطروه لهفته اليومية: طبيبه الخاص، طواقم زوارق صيده، رفاقه في مصارعة الديكة، الطهاة والندل في الحانات، وشاربو الروم في ليالي احتفالات سان فرانثيسكو دي باولا الصاخبة. وأمضى شهوراً في تقصي جذوات حياته في فينكا فيخيا، وتمكن من اكتشاف آثار قلبه في الرسائل التي لم يوصلها إلى البريد مطلقاً، وفي المسودات النادمة، وفي الملاحظات غير المكتملة، وفي سجل إبحاراته الرائع حيث يتلألأ كل بريق

أسلوبه. وتوصل بتحصيله الخاص إلى أن همنغواي كان منغمساً في روح كوبا بقدر أكبر مما كان يفترضه كوبيو أزمنته، وأن عدداً قليلاً من الكتّاب قد خلفوا مثله كل تلك الآثار الحسية التي تكشف عن عبورهم في أماكن لا تخطر على البال في الجزيرة. والنتيجة النهائية لهذا الريبورتاج الصارم والمصفى هو أنه يعيد إلينا همنغواي حياً وصبيانياً بعض الشيء، والذي يخيل إلى كثيرين منا أننا نلمحه بصعوبة ما بين سطور قصصه القصيرة البارعة. همنغوايبنا: رجل قلق من عدم يقين الحياة وقِصرها، لم يكن لديه على الإطلاق أكثر من مدعو واحد على مائدته، وقد تمكن من أن يحل الأسرار العملية للمهنة الأكثر تفرداً في العالم بطريقة لم يتوصل إليها إلا قلة قليلة من الكتّاب في تاريخ البشرية.

---

* كتب غارسيا ماركيز هذا المقال ليكون مقدمة لكتاب «همنغواي في كوبا» الذي وضعه الكاتب والصحفي الكوبي نوربيرتو فيوينتس.

# ساعات غراهام غرين العشرين
# في هافانا

توقف غراهام غرين في هافانا مدة عشـرين سـاعة، فقـدم مراسلو الصحافة الأجنبية جميع أنواع التـأويلات للحـدث. وكان لا بد من ذلك: فقد وصـل علـى مـتن طـائرة خاصـة، قدمتها له الحكومة النيكاراغوية. وكان يرافقـه خوسـيه دي خيسوس مارتينث، وهو شاعر وأستاذ رياضيات بنمي، كـان واحداً من أقرب المقربين إلى الجنرال عمـر توريخـوس. وقـد استقبلهما في المطار موظفون من المراسـم، وجـرى ذلـك وسـط تكتم شديد، بحيث لم يعلم أي صحفي بأمر الزيارة إلا بعـد أن انتهت. وقـد نُقـلا إلى بيـت مخصـص لكبـار الضيـوف، وخصوصاً لرؤسـاء البلدان الصديقة؛ ووضعت تحت تصرفهمـا سيارة مرسيدس بنز سوداء مهيبة، من تلك التي اسـتخدمت

في الاجتماع السادس لقمة بلدان عدم الانحياز، قبل تسع سنوات. والحقيقة أنهما لم يستخدما السيارة، لأنهما لم يخرجا من البيت الذي زارهما فيه بعض الأصدقاء الكوبيين القدماء ممن علموا بخبر الزيارة، لأن الكاتب نفسه أخبرهم بذلك. أما الرسام رينيه بورتوكاريرو الذي تربطه بغراهام غرين صداقة ترجع إلى الزمن الذي جاء فيه الكاتب لدراسة أجواء روايته «رجلنا في هافانا»، فقد تلقى الخبر متأخراً، وحين جاء لزيارة الكاتب، كان هذا قد غادر عائداً من حيث أتى. لم يكد يأكل سوى مرة واحدة خلال تلك الساعات العشرين، ملتقطاً لقيمة من كل طبق، مثل عصفور مبلل، لكنه تناول وهو على المائدة زجاجة كاملة من نبيذ اسباني أحمر جيد، واستهلك خلال إقامته الخاطفة في البيت سبع زجاجات من الويسكي.

وعندما مضى، تركنا مخلفاً في ذهننا انطباعاً غريباً بأنه هو نفسه لا يعرف سبب مجيئه، مثلما قد يحدث فقط لإحدى شخصيات رواياته المعذبة من تردد الرب.

ذهبت إليه في بيته بعد ساعتين من وصوله، لأنه اتصل بي فور علمه بأني موجود في المدينة. وقد سعدت بذلك سعادة كبيرة، ليس للتقدير القديم والكبير الذي أكنه له

ككاتب وكإنسان وحسب، وإنما لأن سنوات طويلة كانت قد انقضت منذ التقينا آخر مرة. كان ذلك اللقاء الأخير ـ كما يتذكره هو نفسه ـ حين سافرنا معاً إلى واشنطن، ضمن الوفد الرسمي البنمي للتوقيع على اتفاقيات القنال. وقد ذهبت بعض الصحف يومئذ إلى القول إن دعوتنا كانت مناورة من عمر توريخوس لتزيين وفده الرسمي باسمي كاتبين مشهورين لا علاقة لهما بتلك المهمة.

الحقيقة أنه كانت لنا نحن الاثنين علاقة بمفاوضات الاتفاقية أكثر مما تظنه الصحافة بكثير. ولكن ليس لهذا السبب ولا ذاك دعانا الجنرال توريخوس لمرافقته إلى واشنطن، وإنما لأنه لم يستطع مقاومة إغراء الإقدام على سخرية حميمة من صديقه الرئيس جيمي كارتر. القضية وما فيها هي أن غراهام غرين، وأنا كذلك ـ مثلنا مثل كتّاب وفنانين آخرين كثيرين في العالم ـ ممنوعان من دخول الولايات المتحدة منذ سنوات طويلة لأسباب لم يستطع حتى الرؤساء في تلك البلاد أن يجدوا تفسيراً لها على الإطلاق. كان الجنرال توريخوس قد وعد بحل هذه المشكلة، فطرح القضية على عدد كبير من كبار الموظفين الأمريكيين الذين كانوا يزورونه في ذلك الوقت، ثم نقلها آخر الأمر إلى الرئيس

كارتر بالذات، الـذي أبـدى استغرابه ووعـد بحـل المسـألة بأقصى سرعة. لكن فترة رئاسته انتهت دون أن يتمكـن مـن تقديم أي رد. وحين كان توريخوس يشكل الوفد للذهاب إلى واشنطن، خطرت له فكرة إدخالنا ـ أنا وغراهام غرين ـ إلى الولايات المتحدة تهريباً. كان الأمـر هاجساً بالنسـبة إليـه: فقبل ذلك بزمن قصير، اقترح على غراهـام غريـن أن يتنكـر بـزي كولونيـل مـن الحـرس الوطـني البنمـي، ويذهـب إلى واشنطن في مهمة خاصة لدى الرئيس كارتر، وذلـك لمداعبـة هذا الأخير بإحدى مداعباته المعتـادة. لكـن غراهـام غريـن، الأكثر رصانة مما يبدو عليه في بعـض كتبـه، لم يشـأ إعـارة جسده المجيد لحدث، لو أنه وقع لكان دون شك واحداً من أطرف الأحداث في مذكراته. ومع ذلك، حـين عـرض علينـا الجنرال توريخوس حضور مراسم توقيع الاتفاقيـات بهويتنـا الصريحة، ولكن بجوازات سـفر بنميـة رسميـة وكأعضـاء في وفد هذا البلـد، وافقنـا كلانـا علـى الأمـر بشـيء مـن الفـرح الطفولي. وهكذا وصلنا معاً إلى قاعدة اندروس العسكرية. كنـا نرتـدي سـراويل رعـاة البقـر والقمصـان الخفيفـة وسـط وفـد كاريبي يرتدي أعضاؤه الملابس السوداء ويخيم عليهم الذهول من فرقعة قذائـف المدفعيـة الترحيبيـة الإحـدى والعشـرين،

ومن الموسيقي الحربية للنشيد الوطني الأمريكي، والتي بدت وكأنها جزء من الدعابة. وقد همس غراهام غرين في أذني ونحن نهبط سلم الطائرة، وكان مدركاً للشحنة الأدبية التي تحملها تلك اللحظة: «رباه، يا للأشياء التي تحدث للولايات المتحدة». ولم يستطع كارتر نفسه إلا أن يضحك مبدياً أسنانه البراقة الشبيهة بأسنان المعلنين في التلفزيون، حين حدثه الجنرال توريخوس عن لعبته الماكرة.

بعد كل تلك السنوات عدت للقاء غراهام غرين المتجدد الشباب، والذي ما يزال وضوحه الذهني هو أكثر صفاته مفاجأة وثباتاً، وتحدثنا كالعادة، قليلاً من الحديث في كل أمر، لكن أكثر ما لفت انتباهي هو النبرة الساخرة التي كان يشير بها إلى المحاكمات الأربع التي عليه مواجهتها في محاكم فرنسية مختلفة، وذلك بسبب الكتيب الاتهامي الذي نشره ضد مافيا مدينة نيس. إن من يعرفون العالم السفلي للشاطئ الأزرق الفرنسي، يدركون أن ما كشف عنه غرين لا يعلن شيئاً جديداً، لكننا نحن أصدقاء الكاتب، كنا قلقين على حياته. أما هو، فلم يتأثر، بل واصل حملته التشهيرية، وقال: «إذا كنت سأموت بسرطان البروستات،

فإنني أفضل الموت برصاصة أتلقاها في رأسي». وكنت قد قلت عن ذلك في حينه، ولست أذكر أين، إن غراهام غرين يلعب بحملته تلك لعبة الروليت الأدبي، مثلما لعب في شبابه بمسدس من طراز سميث، عيار٢٣، كما روى في مذكراته. وقد تذكر هو تصريحي هذا خلال الزيارة، واتخذ منه نقطة انطلاق ليروي لنا تفاصيل محاكماته الأربع.

وفي حوالى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، جاء فيدل كاسترو لزيارته. لقد تعارفا منذ بداية الثورة، منذ بدايتها المبكرة، حين حضر غراهام غرين تصوير فيلم «رجلنا في هافانا»، وقد التقيا بعد ذلك عدة مرات، خلال رحلات غراهام غرين المتتالية، ولكنهما لم يلتقيا على ما يبدو في الرحلتين الأخيرتين، لأن غراهام غرين قال حين تصافحا: «لم نلتق منذ نحو ست عشرة سنة». بدا لي أنهما هائبان بعض الشيء، ولم يكن من السهل عليهما بدء الحديث، لذلك سألت غراهام غرين عن حقيقة حادثة الروليت الروسي التي يرويها في مذكراته. شعّت عيناه الزرقاوان ـ وهما أكثر العيون الزرق التي أعرفها صفاءً ـ وقال: «حدث ذلك وأنا في التاسعة عشرة من عمري، حين أحببت مُدرّسة أختي». وروى أنه لعب فعلاً في ذلك الحين

لعبة الروليت الروسي بمسدس قديم لأخيه الأكبر، وفعل ذلك في أربع مناسبات مختلفة.

كان يفصل بين المرتين الأوليين مدة أسبوع تقريباً، أما المرتان الأخريان فكانتا متتاليتين لا يفصل بينهما إلا دقائق معدودة، فسأله فيدل كاسترو الذي لا يستطيع المرور مروراً عابراً على أمر كهذا دون أن يستنزفه حتى أدق تفاصيله: كم طلقة كانت تتسع طاحونة المسدس. فأجابه غراهام غرين: «ست طلقات». حينئذ أغمض فيدل كاسترو عينيه وراح يهمس أرقاماً مضروبة ببعضها بعضاً، ثم نظر أخيراً إلى الكاتب وقال له: «استناداً إلى حساب الاحتمالات، يجب أن تكون ميتاً». ابتسم غراهام غرين بالهدوء الذي يبتسم به جميع الكتّاب حين يشعرون أنهم يعيشون حدثاً من أحداث كتبهم، وقال: «لحسن الحظ أنني كنت كسولاً في الرياضيات دوماً». وربما لأن الحديث كان يدور حول الموت، سرعان ما تنبه فيدل كاسترو إلى بنية الكاتب المتينة وجسمه السليم، فسأله أي تمارين يمارس. وكان سؤلاً لا يمكن أن يفوت فيدل كاسترو الذي يعتبر التربية البدنية أحد الأمور الأساسية في الحياة، فهو يمارس التمارين الرياضية عدة ساعات كل يوم، وبالنسب الكبيرة ذاتها التي

يمارس بها جميع مهامه، وهو ينصح جميع أصدقائه بإتباع نظام تمارين مماثلة. إنه يتمتع بصحة بدنية استثنائية بالنسبة لرجل في مثل سنه، وهو يعزو إليها حسن سلامته الذهنية، ولهذا فوجئ كثيراً عندما رد عليه غراهام غرين قائلاً إنه لم يمارس أية تمارين رياضية في حياته على الإطلاق، وإنه رغم ذلك يشعر بصفاء ذهني تام ولا يعاني أية اضطرابات صحية وهو في التاسعة والسبعين من العمر، وكشف كذلك عن أنه لا يلتزم بأي نوع من الحمية الغذائية الخاصة، وأنه ينام من سبع إلى ثماني ساعات يومياً، وهو أمر مفاجئ بالنسبة لعجوز ذي عادات ثابتة، وقال إنه يشرب في بعض الأحيان زجاجة كاملة من الويسكي في اليوم، ولتراً من النبيذ مع كل وجبة طعام، دون أن يعاني مطلقاً من عبودية الإدمان على الكحول.

ولبرهة، بدا على فيدل كاسترو أنه أخذ يرتاب بفعالية نظامه الصحي، لكنه سرعان ما أدرك أن غراهام غرين هو استثناء عجيب... استثناء وحسب. وعندما ودع بعضنا بعضاً، كان قد بدأ يؤرقني اليقين بأن ذلك اللقاء سيُذكر عاجلاً أو آجلاً، في مذكرات واحد منا، أو ربما في مذكراتنا نحن الثلاثة.

في تلك الأزمنة،
أزمنة الكوكا كولا

في تلك الأزمنة،
أزمنة الكوكا كولا

لقد أثبت الكوبيون، بين الأشياء الكثيرة الـتي أثبتوهـا، أنه يمكن العيش دون الكوكا ـ كولا علـى بعـد تسعين ميـلاً عن الولايات المتحدة. فالكوكا ـ كولا هـي المـادة الأولى الـتي نفدت بعد فرض الحصار الاقتصادي على كوبا، ولم يبق من ماضيها أي أثر اليـوم في ذاكـرة الأجيـال الجديـدة. فكمـا في جميع البلدان الرأسمالية، كان أشهر المرطبات في العـالم قـد تحول في كوبـا القديمـة، المفسـدة في سـياحة بـلا قلـب، إلى عنصر جوهري من عناصر الحياة.

بدأت الكوكا ـ كولا بالدخول إلى كوبا في ظل دكتاتوريـة الجنرال خيراردو ماتشادو الوحشية، في العقد الثاني من هذا القرن الذي ولد تحت برج التفاهة، حين لم تكن قد اخترعت

بعد السدادات المعدنية التاجية، وكانت زجاجات المياه الغازية تُغلق بكرة زجاجية مضغوطة ومثبتة بسلك، مثل فلين قناني الشمبانيا. وكانت عملية إدخالها إلى البلاد شاقة جداً، وربما كان السبب في ذلك هو عائق ثقافي: إذ ليس للكوكا ـ كولا طعم أمريكي لاتيني. ومع ذلك، وشيئاً فشيئاً، تمكن الضغط الدعائي المخاتل من إحداث شرخ استجابة في أشد البؤر الاجتماعية تأثراً بالذوق السائد في الولايات المتحدة، إلى أن أزاح مذاقها السكسوني من السوق الليمونادة المألوفة المصنوعة من ليمون حقيقي وجميع المرطبات الوقورة ذات السدادات الكروية الموروثة عن اسبانيا الريفية، كما أنها هزمت لبان ويرغليز المرن كرمز لنمط غريب من الحياة.

ساد الاعتقاد بأن من يشرب زجاجة كوكا كولا في ساعة معينة كل صباح يتعرض للإصابة بفتنة أو إدمان شبيه بالإدمان على السيجارة أو القهوة. وكان يسود اعتقاد بأن ذلك ناتج عن مركب سري في الشراب. وحسب بعض المتضلعين، فقد كانت الكوكا كولا تحتوي على الكوكائين حتى عام ١٩٠٣، ونشأتها تفسح المجال للإيمان بصحة هذا الرأي. فقد اخترعت أول الأمر كدواء وليس كمرطب، وذلك في أواخر القرن الماضي، على يد دكتور يدعى بامبيرتون،

وهو صيدلاني من ألاباما (جيورجيا)، كان يعبئها باسمها الشهير لعلاج التشنجات المعوية والمغص الصباحي. ويحمل اسمٍ الشراب وزمن إنتاجه على الاعتقاد بأنه كان يحضر فعلاً من أوراق نبات الكوكا الذي يُستخرج منه الكوكائين، إذ كان شائعاً في ذلك الزمان استخدام أوراق البلادونا وإكسير الباريغوريكو لتسكين الآلام الباطنية. وقد باع الدكتور بامبيرتون معادلة الشراب عام ١٩١٠ إلى شركة المرطبات التي ستغزو به العالم. ولأن الشراب يحتوي على مادة سرية فقط، نال مقابله مبلغاً خيالياً بالنسبة لذلك الزمان: خمسمئة دولار. ومع ذلك، فقد أثبتت سلطات البيرو عام ١٩٧٠ أن المرطب لا يحتوي على الكوكائين، وكان بوسع هذه السلطات منع تداوله لو شاءت، لأن اسمه يحمل الجمهور على الاعتقاد بأن الشراب يحتوي شيئاً لا يحتويه في الواقع. وفي فرنسا، حيث يتوجب التنبيه إلى كل بضاعة تحتوي على مادة ذات استخدام حساس، يُطبع على زجاجات الكوكا كولا تحذير يقول إنها تحتوي على الكافيين. وتقول الأسطورة إن شخصين في العالم كله فقط يعرفان المعادلة السرية للشراب، وإنهما لا يسافران معاً في الطائرة نفسها على الإطلاق.

أثناء مهرجان الشباب في موسكو، عام ١٩٥٧، كان أول ما فاجأنا نحن الزائرين الغربيين خلال أربعة أيام مديدة من التجول في أرجاء أوكراينا هو رؤيتنا لحظائر متوحدة تطل أبقارها من النوافذ، ولقرى وعرة تجوبها عربات محملة بالزهور ورجال غامضين يخرجون بالبيجامات لاستقبال القطار في المحطات، لكننا لم نر في أي مكان تحت سماء الصيف الملتهبة إعلاناً واحداً للكوكا كولا. وقد لفت ذلك انتباه أذهاننا المشبعة بالدعاية الغربية. وبعد انقضاء عدة أيام من الألفة، تجرأت مترجمة متشوقة لمعرفة مفاتن الرأسمالية، وسألتني ما هو مذاق الكوكا كولا، وأجبتها بالحقيقة التي أحسها: «لها مذاق الأحذية الجديدة». في ذلك الحين كان هناك أطباء يصفونها كدواء للأطفال المصابين بالزحار، وآخرون ينصحون بتناولها لترميم قوة القلب، كما كان هناك من يؤكدون، ومن خلال تجربتهم الشخصية، أن تناولها مع الأسبرين يمنحها مفعول المخدرات. أما طبيب أسناني، فكان يؤكد دون أن يطرف له رمش، أنه يمكن لسن مغمور في كأس من الكوكا كولا أن يذوب تماماً خلال ٤٨ ساعة.

عند انتصار الثورة الكوبية، كانت إمكانيات توسيع آفاق الكوكا كولا في كوبا محدودة جداً، لأن موزعيها كانوا قد وصلوا بها إلى أبعد من حدود إمكانياتها كمرطب، وذلك باختراعهم «الكوباليبري» - وهو مزيج من الكوكا كولا والروم الكوبي - ولكن، حتى في هذه الحالة، فإن ٩٠٠ ألف كوبي فقط من أصل ستة ملايين كانوا في ظروف تسمح لهم بشرائها بصورة منتظمة. وحين استولى العمال الكوبيون على معامل التعبئة في هافانا، لم يتمكنوا من مواصلة إنتاج الكوكا كولا، لأن المادة الأساسية كانت تأتي من الولايات المتحدة، والكمية المخزنة منها في المصنع كانت ضئيلة جداً. والشيء الوحيد الذي بقي مبعثراً في جميع أرجاء البلاد هو مليون زجاجة فارغة.

أبدى المتشددون معارضتهم لمحاولة تصنيع شراب يمثل رمزاً لكل ما كان الكوبيون يودون نسيانه. لكن تشي غيفارا، بوضوحه السياسي المذهل، رد عليهم بالقول إن رمز الإمبريالية ليس في الشراب بحد ذاته، وإنما في شكل الزجاجة تحديداً. والحقيقة، التي ربما لم يعرفها غيفارا على الإطلاق، هي أن تصميم الزجاجة لم يتم إلا في سنة ١٩١٥، أي بعد نحو عشرين سنة من ابتكار الدكتور

بامبيرتون للشراب، وحين لم يكن للكوكا كولا من وجود إلا في الولايات المتحدة. ولكنهم منذ ذلك الحين بدؤوا يتجرؤون على إرسالها وحيدة لتجوب العالم وتغزوه.

وكان تشي غيفارا نفسه هو الذي قرر، بصفته وزيراً للصناعة، بدء المحاولة لتصنيع بديل يُستخدم في تحضير «الكوباليبري». وكانت أشد العقول جموداً قد فكرت بإتلاف الزجاجات الفارغة الموجودة في البلاد للقضاء على أصل الداء. لكن عملية حسابية بسيطة أثبتت أن معامل القوارير الكوبية ستحتاج لعدة سنوات كي تعوض تلك الزجاجات بأخرى ذات شكل أقل خبثاً، وكان على أشد الثوريين تشدداً أن يستخدموا الزجاجات الملعونة إلى أن يتم انقراضها بصورة طبيعية. وكل ما هنالك أنهم أصبحوا يعبئونها بكل أنواع المرطبات، ما عدا ذاك الذي ارتجلوه للاستخدام في «الكوباليبري». وحتى سنوات قريبة، كنا نحن الزائرين القادمين من بلدان رأسمالية نشعر بنوع من البلبلة الذهنية حين نتناول ليمونادة شفافة في زجاجة كوكا كولا.

وقد كان الكوبيون أنفسهم هم أول من وافق على أن تقليدهم للكولا كولا ليس أحد نجاحاتهم الكبرى. فقد راجت طرفة في الشارع، واكتسبت شعبية واسعة، حتى أن

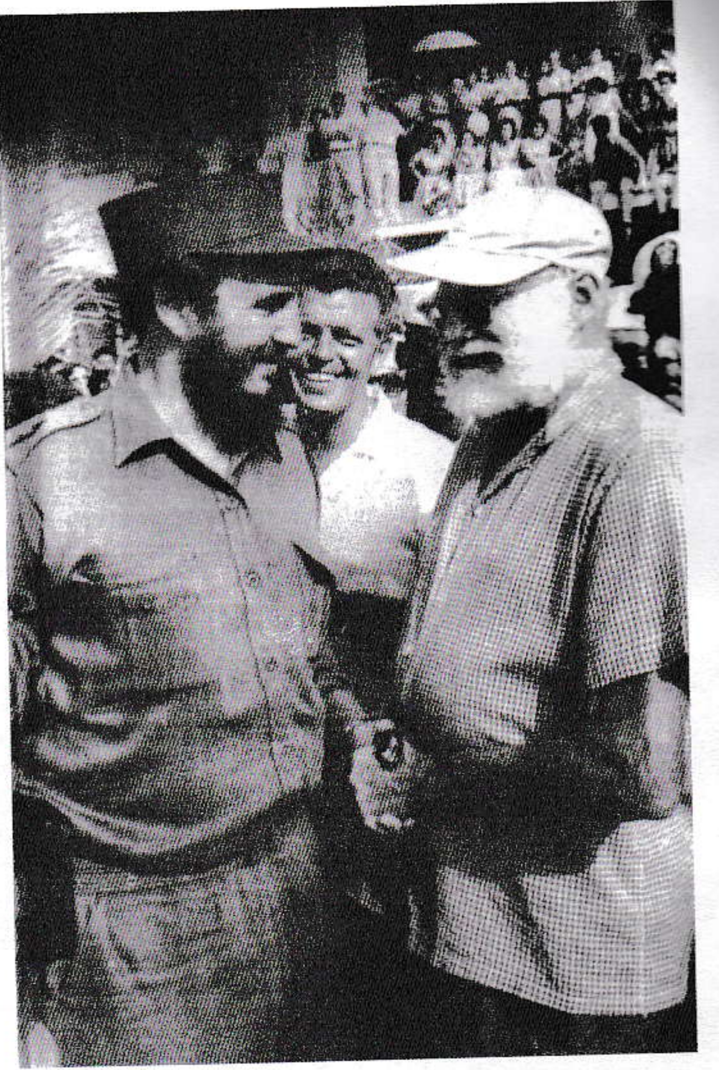
الكيميائيين أنفسهم كانوا يروونها، تقول إن كل زجاجة من شرابهم لها مذاق مختلف عن الأخرى، وهذا يجعل منه المرطب الأكثر أصالة في العالم. وحين قدموا العينة الأولى منه إلى تشي غيفارا، تذوقها، وتمعن بمذاقها بجدية ذواقة محترف، ثم قال دون أدنى تردد: «لها طعم البراز». وفيما بعد، أعلن في التلفزيون أن لها طعم الصراصير. لكن هذا الشراب الجديد شق طريقه رغم ذلك.

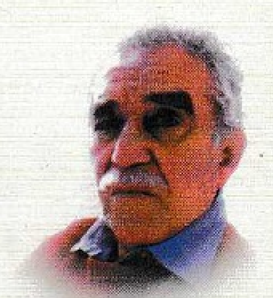
هذه المادة الجديدة، التي سُميت مرطب الكولا، دون أي ادعاء آخر، انتهت للتوصل إلى لون يشبه إلى حد بعيد لون الشراب الأصلي، وإلى طعم لم يعد هو طعم البراز أو الصراصير، لكنه خال دون ريب من الطعم السكسوني. فمذاقه أحلى قليلاً، وهو أقل جفافاً وبه نكهة غريبة من الشوكولاتة، كما أنه شراب جيد للتخلص من الظمأ والحر، وعند مزجه مع الروم الكوبي الأصيل يتوارى مظهره الدخيل إلى أقصى الحدود.

ومن جهة أخرى، أجهز سوء الاستعمال على الزجاجات القديمة قبل الوقت المتوقع بكثير، وتلاشى الرمز من الذاكرة الاجتماعية ولم يصل إلى الأجيال الجديدة. وبعد خمس عشرة سنة من بدء الحصار الاقتصادي، وجد كاتب

كوبي بالصدفة، أثناء مروره العابر في باريس، زجاجة كوكا كولا شاردة من المغرب، عليها كتابة بالحروف العربية المبهمة الشهيرة. وبدافع الفضول اشترى الكاتب الزجاجة ليحملها معه إلى هافانا، ولدى وصوله عرضها بابتهاج على ابنته ذات الخمسة عشر عاماً. نظرت الصغيرة إلى الزجاجة بحيرة دون أن تفهم سبب مبالغة أبيها في الإعجاب. فقال لها: «انظري، تأمليها جيداً، إنها زجاجة كوكا كولا مكتوب عليها بالعربية». فسألته الصغيرة التي ما زالت في حيرة من الأمر: «وما هي الكوكا كولا؟».







# كوبا في زمن الحصار

ببراعة مذهلة يقدم ماركيز بانوراما مكثفة حول كوبا. ينقلك من تفصيل إلى آخر، ويقدم مشهداً عاماً حيناً، وتفصيلاً لا يرى إلا بمجهرٍ في حينٍ آخر؛ ولكنه مدهشٌ في كل ما يقدمه.

تشعر وأنت تقرأ هذه المقالات حول كوبا أنك تسمع نبض الحياة، وأن الحياة نفسها تتحدث، تصرخ وتهمس، وتخفي وتبوح ....

دار الطليعة الجديدة

سورية ـ دمشق ـ ص.ب: 34494 ـ تلفاكس: 2311378
e-mail: marwanfa@scs-net.org